

السنة الثالثة العدد ٣٥ يونيو ٢٠٢٠

كلمة حق

الافتتاحية ..
هل تستطيع الأمة أن تستفيد من كورونا؟!
محمد إلهامي

منظومة القيم وأثرها في مواجهة الأوبئة والجوائح
أ.د رشيد كهوس

مقدمة لعلم إدارة الكوارث
كريم فاضل

محمد عمارة ... راهب الفكر وفارس الميدان (٣/٤)
د. وصفي عاشور أبو زيد

آثـــار الاستبـــداد
محمد الخضر حسين

وغيرها من المقالات ..

محتويات العدد ٣٥

••• يونيو ٢٠٢٠ •••

كلمة حق
klmtuhaq
دوريــة ثقافيــة معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مـديــر التحـــرير
حامد عبدالعظيم

ترحب مجلة 

باستقبال مقالات القراء ،

إذ تعمــل هيئــة التحــريـر علـى فــرزها

ونشر المتميز منها في كل عدد جديد ،

يُرجى إرسال المقالات على البريد التالي

Klmtuhaq@gmail.com



klmtuhaq   

الافتتاحية

هل تستطيع الأمة أن تستفيد من كورونا؟!

محمد إلهامي

قال الله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) ومن هذه الآية فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن العسر الواحد لن يغلب يسريْن، وهذا الوباء الذي اجتاح العالم وأصاب من أمتنا يجب أن يحملنا التفكير فيه على أن نبحث عن مواضع اليسر التي جاءت معه.



وأكثر من رأيتهم من الباحثين، بمن في ذلك من لا يُتَّهَمون في دينهم وإخلاصهم للأمة، إنما بحثوا وفكروا فيما يقدمونه من التوصيات والمقترحات التي ينبغي أن تقوم بها الحكومات والأنظمة، ولئن كان هذا محموداً من البعض في حال بعض الأنظمة، فإنه لا يكفي بحال أن يُقْتَصَر عليه، ذلك أن مجال الأمة أرحب وأوسع من مجال الأنظمة الحاكمة، كما أن بعض هذه الحكومات كالتي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً.

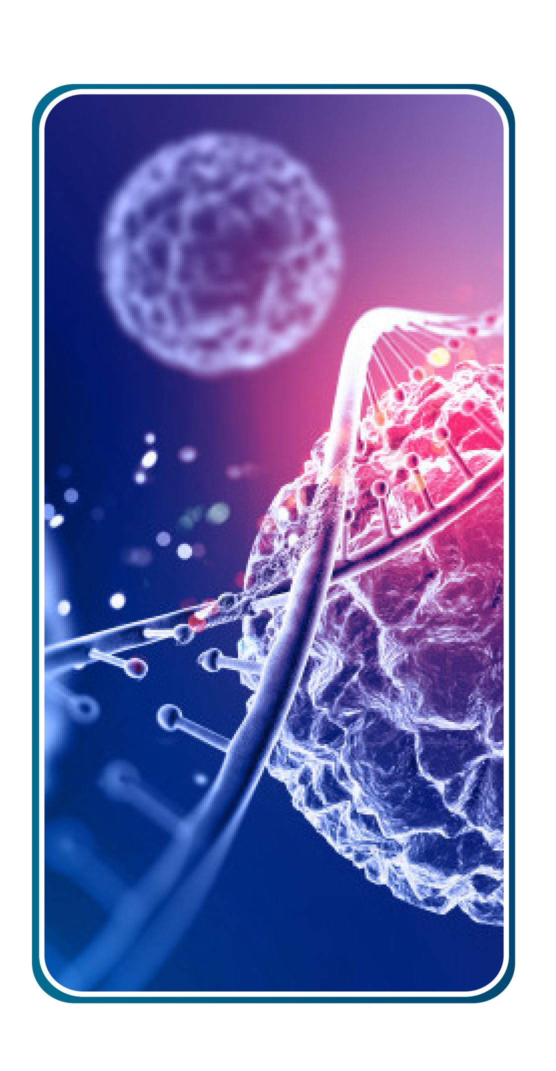
ومن ثَمَّ فهذه السطور مجرد تفكير فيما يمكن أن نستثمره في هذه النازلة.

" يجب أن ينطلق التفكير أصلاً من قاعدة أننا أمة واحدة، وإنما هذه الفرقة التي بيننا مجرد عارضٍ طارئ علينا لم نصنعه بأنفسنا وإنما صُنِع لنا في أزمنة هزيمتنا. وعليهِ، فكل فرصة تقربنا وتردم هذه الحدود المصطنعة بيننا فهي نعمة كبيرة، وكل انعتاق من القيود الثقافية والسياسية والاقتصادية التي اصطُنِعت لنا فهو باب نهضة مأمولة، ومن ثَمَّ فيجب على الذي يفكر أن يضع في حسبانه عموم الأمة طولاً وعرضاً، فهذا فوق كونه واجباً دينياً فإنه ضرورة، إذ إن الذي سيتحدد بهذه القيود فإنما يُضَيِّق على نفسه. "

العلم والتعليم

تحت وقع هذه الجائحة، اضطرت المدارس والجامعات إلى الاعتماد على التعليم عن بعد عبر شبكة الانترنت، ومع ما رافق هذا من الاضطراب والارتباك إلا أن الأمر تمَّ إلى حد أقل ما يُقال عنه إنه مقبول، وسيتحسن مع الممارسة والخبرة وازدياد العقول التي ستدخل إلى المجال وتعمل على تحسين التطبيقات والإمكانيات. وأقيمت بالفعل مؤتمرات علمية متخصصة افتراضية، فضلاً عن الندوات والاجتماعات الحكومية والسياسية. فيما قبل هذه الجائحة كان الأمر عسيراً، بل إن تنظيم سفر يستهلك الوقت والأموال كان أيسر لدى الأكثرين من محاولة تعلم برنامج تواصلي، وكانت فكرة المؤتمر الافتراضي فكرة ممجوجة عموماً.

هذه الوسيلة ستتيح لنا كأمة الاستفادة من طاقات مغمورة ومطمورة ومهجورة لا تُعد ولا تحصى، ففي أمتنا جموع غفيرة من العلماء والدعاة الذين اضطرتهم ظروفهم الاقتصادية والسياسية والأمنية أن يسكنوا أقاصي الأرض أو يسكنوا زوايا القرى والنجوع والحارات والأدغـال، هذه الطاقات كلها يمكن أن يُعاد تفعليها من جديد وتستثمر من جديد في التعليم والدعوة والتثقيف، وذلك أن الجميع صار الآن مضطراً للتواصل عن بعد حتى استعمله وأجاده.



ولا يقتصر الأمر هنا على العلم الشرعي أو العمل الدعوي، وإن كان هذا هو أشرف الأعمال لما فيه من تعريف الناس بالله وبالدين وبمعنى الحياة ودورهم فيها، بل يمتد هذا ليشمل كثيراً من العلماء والباحثين المتخصصين في الفروع العلمية المختلفة، والذين اضطرتهم ظروف متعددة لأن يكونوا بعيداً عن مجالهم الطبيعي.. وساعتها سننقذ مواهب عظيمة في تبسيط العلوم وتقديمها بطرق مشوقة ومبدعة مثل: الفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة وتعليم اللغات وكذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية. إننا كثيراً ما نعاني من أن المواد المهمة لا يجد الطالب في مدرسته أو جامعته من يحسن شرحها وتوضيحها، فالقدرة على التعليم موهبة.

وفي مرحلة لاحقة قد يتطور هذا إلى إنشاء مدارس افتراضية وجامعات افتراضية وأكاديميات افتراضية، وتتاح الفرصة لاستضافة خبراء كبار في مجالاتهم لم يكن ممكناً فيما قبل الاستفادة منهم، وهذا كله سيعرفنا على صفوة جديدة من أهل العلوم والخبرات المتميزين الذين سيتعرفون بدورهم على تلاميذ نوابغ في عرض الأمة الإسلامية كلها، وإذا ما التقت الطاقات

المحجوزة عن بعضها فإنما نتوقع أن تخرج عنهما الكنوز العجيبة كما قال تعالى عن التقاء البحرين: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

هذا فضلاً عما سيوفره هذا من فرص العمل المختلفة، وما سيسفر عنه من الصعود الطبيعي للطاقات المتميزة وما سيزيحه هذا من المتنفشين الأدعياء الذين لا يُستفاد منهم والذين ما وصلوا لمواقعهم هذه إلا بالرشاوى أو الوسائط أو أسباب الفساد.. فإذا حضر الماء بطل التيمم، وحيث وُجِد مالكٌ فلا يفتي غيره. ولا أشك أننا سنجد في هذه الحالة فرصة عظيمة في تعلم علوم ممنوعة على أمتنا، وهي كثيرة ليس أولها ما في التقنية والهندسة الوراثية وليس آخرها العلوم الأمنية والعسكرية والفضائية، تلك العلوم التي يحتفظ بها العالم المتقدم (!) لنفسه ويحجزها عن الضعفاء لكي يحافظ على فجوة التخلف بيننا وبينه، بل إن التعارف الذي قد يحدث بين عالِمَيْن أو مجموعة علماء قد ينشأ عنه علومٌ جديدة فضلاً عما قد ينشأ عنه من المخترعات والمبتكرات والأفكار المبدعة التي تستطيع أن تنقل أمتنا من حال إلى حال! فنكسر بهذا حاجز التخلف المفروض علينا والذي حُبِسْنا فيه.

"وأقل القليل أنه يمكن تحصيل ثقافات ممنوعة في واقعنا، إما بقرارٍ مقصود أو لظروف غير مقصودة، كثقافة التسلح والعيش في الجبال والغابات والصحاري والاهتداء بالنجوم ومعرفة الوقت وغيرها من الثقافات التي ضربتها المدنية الحديثة المعاصرة.. وهو ما ستحتاجه الأمة قطعاً في ظل حالة الحروب والاضطرابات التي تسودها والتي تجعل المستقر الآمن طريداً في البر والبحر بين عشية وضحاها.. نسأل الله السلامة لنا وللمسلمين أجمعين."

الاقتصاد والأموال

هذا مجال أصعب من مجال العلم والتعليم، وذلك أن المال والاقتصاد من أركان السيطرة العالمية والتحكم في الشعوب، ومع ذلك فإن ثمة ما يمكن فعله وكلٌّ بحسب ما يستطيع.

إن أبسط الأمور أن يتبادل الناس الخدمات والحاجات بمجرد الوعد المبني على الثقة بين طرفين، فإذا أردت -مثلاً- درساً على يد الشيخ الفلاني وكان المقابل أن أقوم له بخدمة أخرى أستطيعها أو أن أدفع ثمن هذا الدرس إلى قريب له في بلدي، فهذه عملية بسيطة، تحققت بها المنفعة المتبادلة دون أن نحتاج إلى المرور على التحويلات البنكية وتحويلات العملة وكافة العمليات التي تزيد من كوننا تحت هيمنة الدولار العالمي وتحت تحكم الرقابة المصرفية. إلا أن نشأة النقود ارتبطت بتوسع العالم وتعدد الأشخاص والخدمات والاحتياج إلى وسيط سهل للتبادل، فهل يا ترى يكون ممكناً التفكير في إنشاء بنك افتراضي يستند إلى تخزين الأرصدة الافتراضية من الخدمات، والتي يمكن من خلاله تحصيل منافع في مقابلها؟!



فإذا افترضنا مثلاً أنني كتبتُ بحثاً يحتاجه مركز بحثي ما، مقابل مبلغ ما، فإن هذا البنك يحتوي على رصيدي من أجوري التي هي أموال افتراضية مقابل الخدمات التي قدَّمتها، وأستطيع بدوري أن استعمل هذا الرصيد الافتراضي في شراء سلع أو بضائع من متجر ما هو نفسه ضمن شبكة البنك من العملاء.

سيرتبط هذا بقدرة البنك على توسيع عدد العملاء الجهات التي تتعامل معه، وبالثقة التي يُكَوِّنها لعملائه، وسيرتبط أيضاً بقوة سياسية أو ربما اجتماعية تمثل سندًا له! والتفكير في هذه الأمور سيحتاج جهداً ولكنه ليس صعباً ولا

مستحيلاً، لا سيما إذا تجرأت دولة من بين الدول الناهضة لتبني هذه التجربة. بل أزعم أن تجربة كهذه يمكن أن تتبناها جماعات متوسطة أو كبيرة، أو مجموعة من الشركات المتحدة أو المتعاونة أو حتى مجموعة من البشر المستوعبين لهذه الفائدة بشرط تحقق الثقة وإحكام النظام الذي يُسَيِّر هذه العملية.

إن نجاح مثل هذه التجربة قد يخرج أمتنا من سلطة الـدولار، ويعصم اقتصاديات بلادنا وأموال شعوبنا من عمليات التحكم والهيمنة فضلاً عن المضاربات التي تشهدها البورصات العالمية، وأقله أن يحمي أموالنا ومجهودنا أن يكون هباء ومرهونا بقرار يعبث به أحد في عاصمة غربية (إن من يعرفون النظام المالي العالمي يعرفون أن العالم كله يعمل خادماً لأمريكا، وأن الشعوب هي التي تدفع ثمن رفاهية القلة المترفة من عرقها ودمائها، وأن أمريكا تصدر أزماتها لدول العالم لتحلها نيابة عنها، فتأخذ المغانم وتُحَمِّلهم المغارم.. وهذا موضوع شرحه يطول).

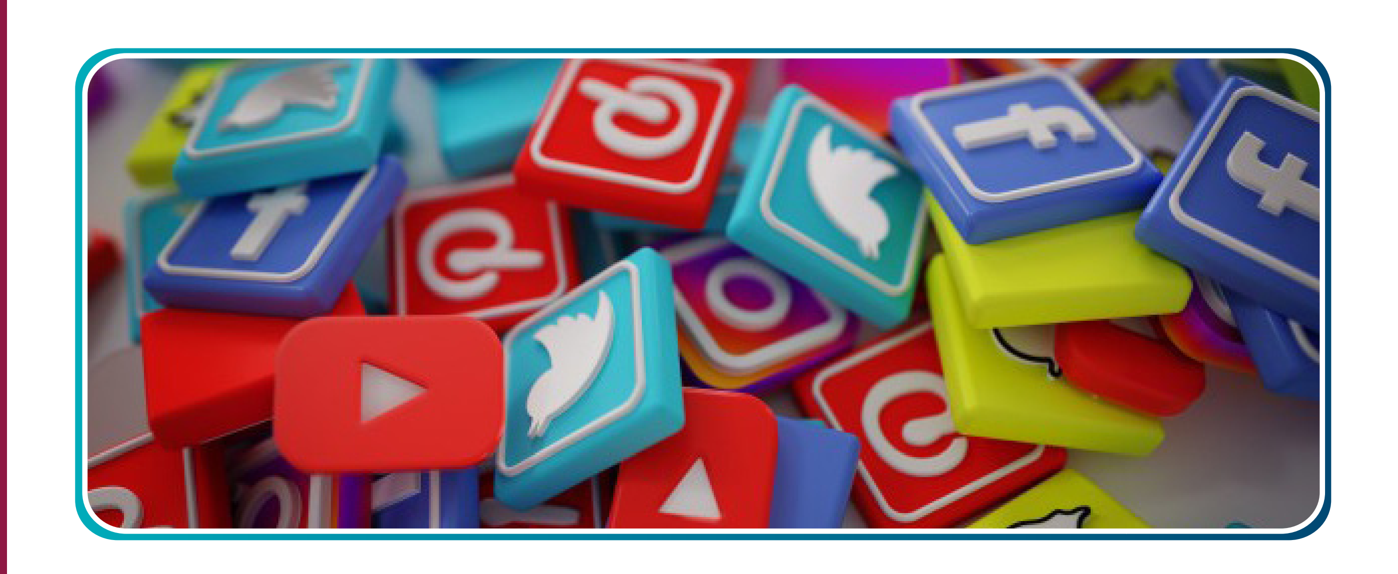
❞ سيكون وجود نظام مالي على هذه الشاكلة دعماً قوياً لسائر الأنشطة الاقتصادية والتجارية التي تجري في أمتنا، وإذا نما نجاح مثل هذه التجربة فستكون بيئة في غاية الخصوبة لإنتاج رجال أعمال مخلصين لأمتهم ومنتجين ومبدعين، مما يحفظ طاقتنا المالية من أن يعبث بها الأجانب أصحاب الاستثمارات الساخنة الذين تخصصوا في خراب اقتصادياتنا الناهضة. ❝

مفهومٌ بالقطع أن النجاح المرجو لن يبلغ الكمال إلا بأن تتبناه دولةٌ ما سياسياً، وتقف وراءه بقوتها وثقلها الأمني والعسكري، ولكن يمكن فعل الكثير والمهم حتى فيما قبلَ تَبَنِّي دولة ما لهذه التجربة.



معظم الناس تعرف لأول مرة على برنامج «زووم» تحت ضغط هذه الجائحة، وقد أظهرت بعض الإحصائيات تضاعف عدد مستخدميه آلاف المرات،

وظهرت العديد من الدراسات والمقالات التي تتحدث عن مدى الثقة التي يمكن لمستخدم البرنامج أن يعتمد عليها في انتهاك خصوصية واستعمال بياناته. وبدأ صعود برامج الاجتماعات من هذا النوع، سواءٌ بإحياء برامج وطرائق كانت قد نُسِيَت أو حتى اختفت، أو بدخول برامج جديدة على الخط ضمن شركات كبرى (مثل جوجل) أو متوسطة.



" ولا شك عندي أن هذا القطاع من برامج التواصل سيواصل النمو والازدهار والتوسع، ويتنافس أهله في المزايا، ثم يتنافس الكبار على احتكاره، ثم يأتينا بقيوده وقوانينه، فتُلغى الحسابات وتُغلق الغرف وتوضع القيود على الاجتماعات، وتحتوي وثائق الاستعمال التي توافق عليها قبل البدء بالبرنامج على بنود جديدة تنتهك حقوق المستخدم وخصوصيته وتجعله تحت رحمة الشركة المنتجة للبرنامج، وربما فرضت عليه الاحتكام لقوانين بعينها في بلد بعينه. "

يجب أن يحملنا هذا كله، بعد تجربتنا في مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى، على أن تسهم الشركات الإسلامية في هذا الباب بإنتاج برامج التواصل الاجتماعي، ومن الآن.. من قبل أن يحتشد عالمنا في مكان واحد، مثلما احتشد في الفيسبوك وتويتر ويوتيوب وانستجرام، حتى صار إنتاج مواقع تواصل أخرى يكاد يكون عديم القيمة والفائدة.

إذا وُجِد البرنامج الإسلامي للتواصل في مرحلة مبكرة، فإنه سيحقق الكثير من المزايا لأصحابه، ليس أولها الأموال الوفيرة ولا آخرها أنه يمكن أن يكون قوة ناعمة في عالم الانترنت، كما أنه سيوفر مكاناً آمناً للمسلمين وبيئة حاضنة غير خاضعة لاشتراطات غير المسلمين. ولا يعني هذا بطبيعة الحال أنه لن يتعرض لتحديات ومشكلات، فعالم مواقع التواصل وبرامج التواصل هو عالم خلفي للسياسة والقوى الدولية، ولئن أسعف الحظُّ بأن تتبنى دولة ما -أو مجموعة دول- إسلامية هذا البرنامج، فإنه سيكون خطوة قوية في عملية استقلالهم.. فإذا تصورنا أن تركيا وماليزيا وباكستان وإندونيسيا وإيران تبنوا مثل هذا البرنامج كخطوة للحفاظ على بيانات شعوبهم و/أو لاستثمارها داخلياً فإن هذا يسارع بتقوية اقتصادهم وتغمية جوانب اجتماعية كثيرة عن عدوهم ويزيد من التكتل السياسي والاقتصادي فيما بينهم أيضًا.

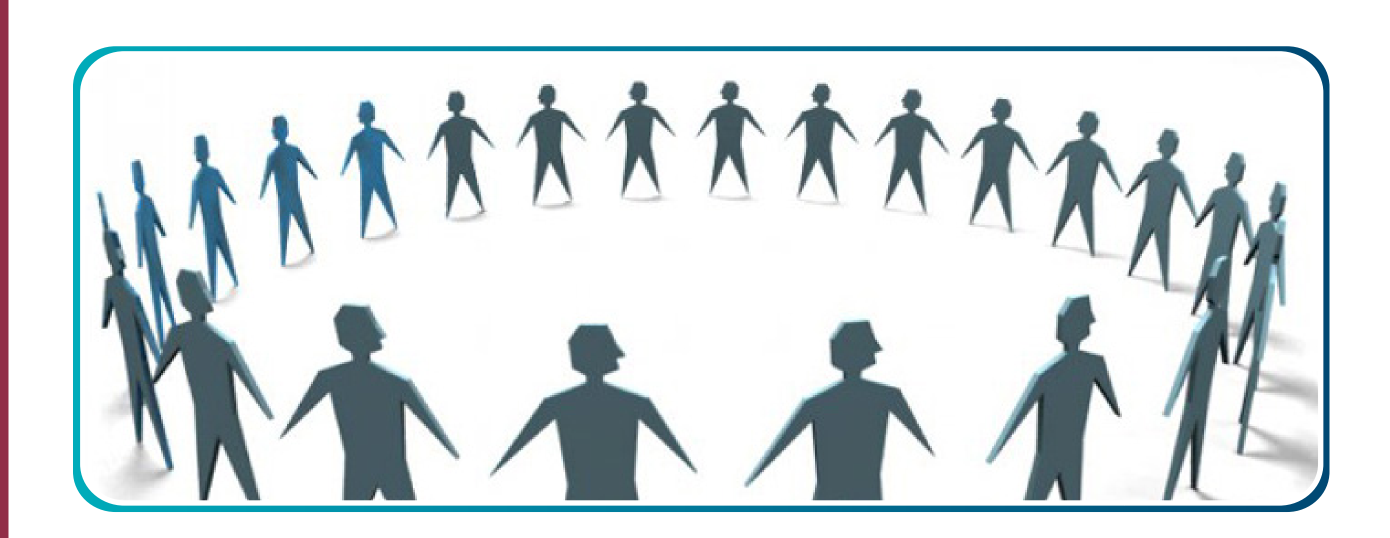
ومع هذا كله، وقبل أن تستغرقنا الأحلام، نستطيع القول إن مجرد وجود برنامج تواصل إسلامي حتى ولو لم يكن واسع الانتشار وحتى ولو لم تتبنه دولة ما، فإنه خطوة مهمة وكبيرة، وإن مجرد التواصل بين المسلمين في بيئة لا يسيطر الأجنبي على كل تفاصيلها، ولا يتحكم في غلقها وفتحها وطرد الناس منها، إن هذا كله أمرٌ مهم تنتفع به الأمة.

ويبدو إنتاج برنامج إسلامي للتواصل أسهل الأمور التي يمكن تنفيذها في بدايتها، إذ لا يحتاج سوى مجموعة مبرمجين مع رأس مال مع مهارة إدارية في تنفيذ وإنتاج البرنامج، وهذه أمور متوفرة بكثرة في عالمنا الإسلامي، وبقية التحديات ستأتي تباعاً وعند كل مرحلة سيبعث الله لها رجالها، ما دامت النية قد صحَّت، كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

العلاقات الاجتماعية

أحد الأركان التي بُنِي عليها الطغيان الحديث، الدولة الحديثة المركزية، كانت في تفكك العلاقات الاجتماعية، ومن أهم ما أسهم في هذا التفكك

ظاهرة نشوء المصانع مع الثورة الصناعية، لقد عمل وجود المصنع على إفراغ القرى من السكان كما عمل على تضخم المدينة، ووقع ما يسمونه في التاريخ وعلوم الاجتماع «ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة»، فحين صار العمل في المصنع يأتي بعائد أفضل من العمل في الزراعة أو في التجارة البسيطة تحول المصنع إلى بذرة مدينة تنشأ من حوله، ينهمر عليها شباب القرى، وتفرغ منهم قراهم.. ويستدعي هذا جهازاً إدارياً يتضخم بازدياد لإدارة هذه الأعداد، بما يجعل منهم تروساً ذات كفاءة لإدارة المصنع الضخم.. واستدعى هذا كله تضخم المدينة، وبالتالي تضخم السلطة المهيمنة على المدينة..



وبقدر ما فرغت القرى من أهلها بقدر ما ضعف ارتباط أهلها بها، وضعفت الروابط الاجتماعية فيما بينهم، وانحلت العصبيات القديمة التي كانت تمثل مركز قوة سياسي واقتصادي واجتماعي، وكانت هذه القوة تنافس وتحتك وتشتبك حتى بقوة السلطة الحاكمة.

أما الآن، فقد انحلت العصبيات، وقدَّمت القرى أبناءها عبيداً في المصانع الجديدة، كما أن المدن الجديدة التي نشأت بعد الثورة الصناعية كانت شبيهة جداً بالعنابر التي يعمل فيها عمال المصانع، مجرد وحدات سكنية متشابهة ومكررة وتزداد توسعًا، لا يُراد منها إلا أن تكون كالزرائب لعمال المصانع يقضون فيها ساعات نومهم بعد أن ينتهك جسدهم طيلة العمل في الصباح، لذلك لم تكن المدن الحديثة تحمل الطابع الفني المعماري الذي حملته مدن العصور

الوسطى وعصر النهضة والتنوير، بل كانت مجرد وحدات سكنية باردة وخالية من أي روح أو طابع ثقافي، بل ونُزِعت منها الأسماء لتُعرف بالأرقام، وحتى الشوارع صارت في مدن كثيرة تُعرف بالأرقام لا بالأسماء!.

ونشأ عن هذا التضخم تضخم الجهاز الإداري للدولة، التي صارت تسيطر على كل التفاصيل، كأنها إدارة مصنع كبير، وهؤلاء الأغراب الذين عملوا في المصانع ثم سكنوا المدن إنما كانوا أغراباً أفراداً قد تركوا موضع عصبيتهم وقوتهم وجذورهم، وليس بينهم وبين أمثالهم من الترابط الاجتماعي وعلاقات الرحم ما يجعلهم يفكرون في أن يكونوا قوة أمام إدارة المصنع، أو أمام قوة الدولة.. لذلك اتسع فارق القوة والسيطرة والتحكم والاستبداد بين سلطة تزداد قوة وتحكماً وبين مواطنين أشبه بالعمال والعبيد قد فرغوا من كل قوة.

هذا الكلام السابق، إنما هو مدخل للقول بأن الطغيان الحديث كان في أحد أركانه تطوراً لظاهرة الهجرة من المدينة إلى الريف تحت ضغط الواقع الاقتصادي الصناعي.. ولذلك فإن النظر إلى وباء كورونا من هذه الزاوية سيلفت نظرنا إلى أمر آخر، وهو احتمال أن تنقلب هذه الظاهرة بالعكس.

منذ ظهر الانترنت ظهرت معه وظائف كثيرة يمكن أن يؤديها المرء وهو جالس في بيته أو في قريته، وقد أسهم هذا كثيراً في التحرر من عبودية الواقع وعبودية السلطة لفئات كثيرة، والآن مع اضطرار كثير من الشركات والأعمال لإعطاء موظفيها إجازة اكتشفت كثيرٌ منها إمكانية أن تعتمد على موظفيها وهم في البيوت، وأنه لا حاجة ليكونوا دائما في مقر الشركة، وبعضهم يحتاج أن يكون في مقر الشركة يوما أو يومين خلال الشهر كله.

لو استمرت هذه الظاهرة التي يتزايد فيها الاعتماد على العمل عن بعد، وبرأيي فإنه يجب علينا نحن المسلمين كما يجب على كل الأمم المقهورة أن تسعى في هذا وتحرص عليه، فإنه قد يكون بداية لعودة الهجرة من المدن إلى الريف، واستعادة لما انحل من العصبيات القديمة بإعادة تكوين هذه الروابط.

(ونحن المسلمون مأمورون من خلال نصوص صلة الرحم وحقوق الجار بأن نحرص دائماً على زيادة التكتل الاجتماعي بين الناس، وكلما كان المجتمع متكتلاً كان أقرب للإسلام، بل نحن إذا نظرنا إلى عبادات الإسلام وشعائره لوجدنا أن لها آثاراً اجتماعية قوية.. للمزيد في هذا الأمر: راجع هذا الرابط).



ثمة آثار كثيرة وخطيرة سترتب على ظاهرة الهجرة العسكية من المدن إلى الريف، إذا حدثت، ويبدو مجملها في صالح الأمة وفي صالح الشعوب المقهورة ضد السلطات الحاكمة ورجال الرأسمالية الكبار الذين لطالما تضخموا اعتماداً على تضخم المدن، ولا يتسع المقام الآن لسرد تفاصيل.

لكن القاعدة السائرة أن كل قوة للأمة في مقابل قوة السلطة، هي في صالح الشعوب، وهي ضد الطغيان وكهنته وسدنته.

ونسأل الله تعالى أن يلطف بنا وبأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، وأن يجعل الموت راحة لنا من كل شر.



مقدمة لعلم إدارة الكوارث

كريم فاضل

أثرت الكوارث وستؤثر على البشرية منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وكرد فعل فطري غريزي، حاول الأفراد والمجتمعات تجنب التعرض للكوارث ابتداء، أو تقليل آثار الكوارث حال وقوعها، عن طريق تطوير مستمر لوسائل توقع الكوارث قبل وقوعها، أو إجراءات للتعافي من تبعات حدوث الكوارث، ومن ثم محاولة الرجوع للوضع الطبيعي أو وضع ما قبل الكارثة.

وبغض النظر عن هذه الطرق المختلفة والمتنوعة والمتطورة من عصر لآخر ومن مجتمع لغيره، فإن الهدف الرئيسي يتلخص في كلمتين "إدارة الكوارث".

العامل المحفز الذي يقود فكر إدارة الكوارث في العالم بأسره هو تقليل الخطر أو الأثر المترتب عليها، سواء على حياة الأفراد والمجتمعات، أو الأضرار الواقعة على الممتلكات، أو البيئة بشكل عام. لكن لأسباب متعددة (سياسية، ثقافية، اقتصادية، أو غيرها) فإن دول العالم ليست كلها تستطيع أن تتعامل مع حدوث الكوارث والآثار المترتبة عليها بنفس الكيفية أو الكفاءة. لكن ما تتشارك فيه جميع المجتمعات والدول، أنه لا توجد دولة منيعة بالكامل ضد الكوارث -أياً كان سببها- كما أنه لتعقيدات العولمة فإن احتواء آثار أي كارثة في حدود الدولة التي تعرضت لها أصبح غير ممكن؛ لذا نشأ مصطلح "إدارة الكوارث الدولية"، وهذه المصطلحات وغيرها سنتناولها بالتفصيل لاحقاً.

في هذه المقدمة نتكلم عن مقدمة لعلم إدارة الكوارث، وبداية ولتحرير بعض المفاهيم، سنتعرض لتعريف المصطلحات التي سنتناولها، ونبدأ بتعريف "الكارثة"، تبعاً لتعريف منظمة الصحة العالمية، فإن الكارثة هي حدث يقوم بإحداث إرباك أو اضطراب في الحالة الطبيعية، وينتج عنه قدر من المعاناة التي تزيد عن قدرة المجتمع المصاب على تحملها. العالم (تيرنر) له تعريف متعمق أكثر وله بعد سسيو-ايكونمك (اجتماعي-اقتصادي)، حيث يعرف الكارثة أنها حدث يتركز في زمان ومكان بعينهما، يهدد المجتمع ويعرضه لعواقب كبيرة وغير مرغوبة، كنتيجة لانهيار الاحتياطات التي كان يظن أنها كافية أو مناسبة.

هذا التعريف يتناول الخصائص الأساسية لأي كارثة (حدث، زمان، مكان)، ولنأخذ مثالاً في حياتنا اليومية العادية، وهو تعطل السيارة وأنت في طريقك إلى العمل. الحدث هنا هو تعطل السيارة، والزمان هو أنك بالفعل تأخرت عن عملك، والمكان هو الطريق السريع حيث لا توجد مساعدة بالقرب منك، بالرغم من أنك تقوم بصيانة السيارة دورياً، لكن هذا لم يمنع حدوث العطل لأنه متوقع وهو جزء من تكوين أي آلة، أنها معرضة للتوقف في أي وقت.

والكوارث تنقسم إلى قسمين، كوارث طبيعية، وكوارث مسببة بفعل الإنسان. الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والأوبئة. والكوارث البشرية مثل الحروب والهجمات الإرهابية، والتلوث، والحوادث الصناعية وغيرها. ويوجد نوع هو مزيج من النوعين، ففي دراسة لإدارة التعاون التقني الألمانية تحدثت عن أن أغلب الكوارث الطبيعية أساساً سببها التدخل البشري؛ مثل حدوث بعض الزلازل نتيجة لأعمال التنقيب أو اختبارات الاسلحة، أو زيادة الأعاصير نتيجة لزيادة معدلات التلوث الصناعي أو انتشار بعض الأمراض نتيجة لتجارب بيولوجية وغيرها.

إدارة الكوارث هي الإجراءات التي تعالج الأحداث غير المتوقعة. وعدم التوقع هنا يعود على وقت حدوث ومدة الحدث وليس نوعه، فنحن مثلاً نعرف يقيناً أن الزلازل حدثت وستحدث ونستطيع بشكل تقديري توقع أماكن حدوثها؛ لكن لا توجد طريقة لمعرفة وقت حدوثها أو المدة التي سيستغرقها الزلزال.

هناك ما يسمى بدورة إدارة الكارثة (Disaster Management Cycle) وهي تغطي جميع مراحل الكارثة، من قبل حدوثها، وإلى ما بعد انتهاء آثارها والرجوع إلى نمط الحياة الطبيعي. هذه الدورة تتكون من مراحل أربع رئيسية مترابطة، حيثما انتهت تبدأ مرة أخرى، لخصتها الباحثة ليندساي في تقرير مقدم للكونجرس الأمريكي.



المرحلة الأولى: تخفيف الأضرار (mitigation)

وفي هذه المرحلة يكون التركيز على منع أو تقليل احتمالية حدوث الكارثة وتخفيف آثارها. تعتمد هذه المرحلة على التعاون والتكامل بين الإجراءات

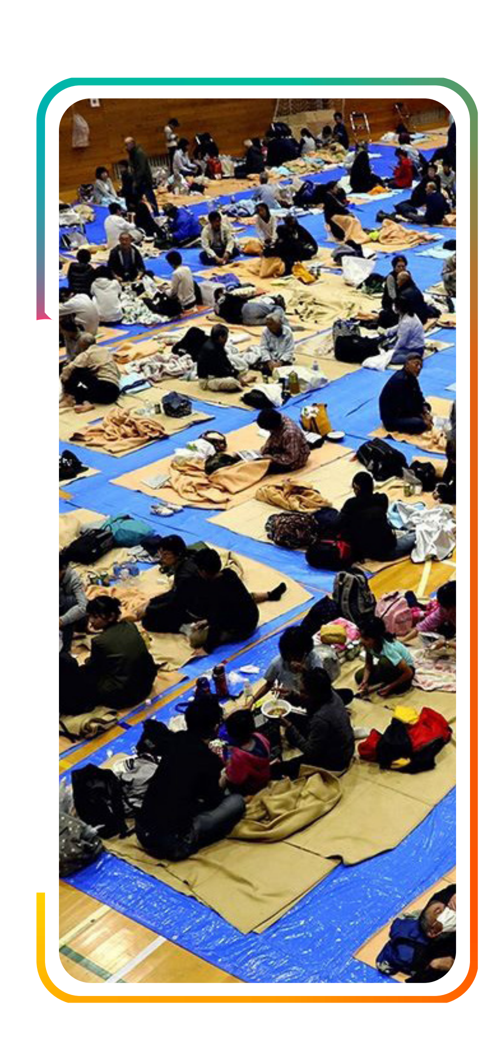
المختلفة بين الإدارات في المؤسسة الواحدة أو إدارات الدولة أو الدول على المستوى العالمي.

من هذه الإجراءات مثلاً وضع أكواد موحدة للمناطق السكنية لتسهيل وصول الفرق الأمنية والإغاثية، ووضع معايير للبناء في المناطق المعرضة لأخطار الأعاصير أو الزلازل. ومن المهم تسهيل توفر المعلومات والبيانات عند الحاجة لها لتسهيل تقييم الموقف من قِبل فريق إدارة الكارثة.

هذه المرحلة تُعدَّل إجراءاتها باستمرار وتُحدَّث بعد التقييم المستمر لضمان الجاهزية التامة ولتلافي وجود نقص أو قصور.

المرحلة الثانية: الاستعداد (Preparedness)

والهدف هو الوصول لحالة الرضا عن مستوى الاستعداد والجاهزية للاستجابة لأي حالة طوارئ تنتج عن وقوع كارثة، وذلك من خلال برامج تقوي القدرة التقنية والإدارية للحكومات، أو المنظمات، أو المجتمعات. هذه الإجراءات يمكن تحسينها باستمرار عن طريق إيجاد آلية واستحداث خطط واستراتيجيات طويلة وقصيرة المدى. عن طريق البرامج التعليمية، أو بناء نظم إنذار مبكر على سبيل المثال.



الاستعداد أيضاً قد يكون عن طريق خطط لتوفير احتياطي استراتيجي من الماء العذب والطعام والدواء والمعدات، في حالة حدوث كارثة محلية أو وطنية.

المرحلة الثالثة: الاستجابة (Response)

هدف هذه المرحلة تقديم مساعدة عاجلة ودعم فوري لضمان الاستمرارية الحياتية، وتقديم الدعم الصحي اللازم ودعم السكان المتضررين. هذا الدعم يشمل تقديم مساعدات غذائية، أماكن إيواء، مستلزمات صحية، إصلاح أولي للبنية التحتية الأساسية مثل شبكة الطرق والاتصالات.

باختصار الهدف هو تقديم مساعدات أساسية عاجلة لضمان استمرارية الحياة أو عمل مؤسسات الدولة لحين الانتهاء من تقييم الأضرار ومن ثم إصلاحها بشكل دائم. أعمال الإغاثة تُعد عنصراً أساسياً في هذه المرحلة.

المرحلة الرابعة والأخيرة: التعافي (Recovery)

هنا الكارثة تصبح آثارها تحت السيطرة إلى حد كبير، والسكان المتأثرون يستطيعون العودة إلى نشاطاتهم أو أغلبها بشكل طبيعي مع رجوع البنية التحتية إلى حالتها الطبيعية. لا توجد هنا مدة زمنية محددة لهذه المرحلة؛فقد تستمر لفترات طويلة وبشكل موازٍ مع مرحلة تخفيف الأضرار والاستعداد؛ حيث إن هذه المراحل الأربع متداخلة ومستمرة، حيثما انتهت بدأت من جديد. وتستمر هذه المرحلة إلى حين استعادة كافة الخدمات التي تعطلت بشكل تام.

مثال تطبيقي

لنضرب مثالاً نوضح به دورة إدارة الكارثة بالنسبة لحدوث زلزال.

في المرحلة الأولى وهي مرحلة تخفيف الأضرار، تضع الحكومة تقسيمات إدارية للمناطق على مستوى المدن والقرى وهكذا؛ ليسهل معرفة كل قسم عن طريق كود خاص به، ثم تحدد الحكومة المناطق الأكثر تعرضاً للزلازل عن طريق العلماء، وإلزام المقاولين باتباع طرق بناء معينة في هذه المناطق.

ومن ثم تبدأ المرحلة الثانية وهي الاستعداد، عن طريق توفير برامج توعوية للجماهير بكيفية التصرف أثناء وبعد حصول الزلازل، بناء نظم إنذار مبكر وربطها بشبكات الكهرباء والمصانع الحيوية في البلاد؛ حيث إن مهمة نظام الإنذار المبكر ضد الزلازل الرئيسية هي توفير نحو من ٢٠ إلى ٤٠ ثانية منذ نشوء الموجة في مركز الزلزال وقبل بلوغها المناطق السكنية، هذه الثواني المعدودة هامة جداً لتلافي مضاعفات أخطر للزلزال، أيضاً توفير احتياطي استراتيجي وتوزيعه على مخازن خاصة بالدولة وقت الحاجة. أيضاً يمكن بناء شبكة اتصالات للطوارئ تستخدمها الحكومة وفرق تنفيذ القانون والطوارئ عند انقطاع وسائل التواصل الأساسية.

تبدأ المرحلة الثالثة وهي الاستجابة وتكون بتدخل فرق الإغاثة الحكومية بالمشاركة والتعاون، عن طريق تفعيل بروتوكولات متفق عليها مسبقاً مع الفرق والمساعدات الدولية، وأيضاً من المنظمات غير الحكومية المحلية، ويكون هدفها إغاثة المتضررين وتقديم المساعدات العلاجية والغذائية وبناء مخيمات إيواء مؤقتة.

المرحلة الرابعة والأخيرة هي التعافي، وتعتمد على عناصر كثيرة، اقتصادية واجتماعية وغيرها؛ فمثلاً بلد من أفقر بلدان العالم مثل هايتي لم تتعافَ بشكل كامل من زلزال ٢٠١٠ الذي قتل ٣٠٠ ألف إنسان، رغم مليارات المساعدات الدولية المقدمة، بسبب صعوبات تتعلق بطبيعة الدولة ككل، ومثلها أيضاً نيبال التي لم تتعافَ بشكل كامل من زلزال ٢٠١٥.

" إن إدارة الكوارث موجودة منذ بدء التاريخ، وإن كانت المصطلحات غير مستخدمة بشكلها الحالي. "

المصادر

WHO Publications (2002). Disasters and Emergencies Definitions.
Turner, B. (1976). The Development of Disasters: A Sequence Model for the Analysis of the Origins of Disasters.
Masys, A. (2014). Disaster Management: Enabling Resilience.
Lindsay, B. R. (2012). Federal Emergency Management: A Brief Introduction.
GSDMA, (2015). Earthquake Management Plan.

العمل الخيري
بين الرسالية والوظيفية ٠٢

الصغير منير

إن العمل الخيري لا يقضي على الفقر ولا يجتثّه من المجتمع، ولا الدولة نفسها بكل مؤسساتها ومواردها تستطيع أن تفعل ذلك، وإنما حقيقة ما تفعله الجمعيات الخيرية هو أنها تحاول علاج آثار الفقر الذي صنعته الدولة بسوء تسييرها والفساد المستشري فيها والنهب المستمرّ لخيرات الشعوب وثرواتها من طرف الساسة ورجال الأعمال الفاسدين.



ومن هذا المنطلق فإنه من مصلحة الدولة أن تكثر الجمعيات الخيرية وأن تمنح لها الاعتمادات القانونية لأنها ترفع عنها حرج ومؤنة كفالة ورعاية هذه العائلات ولا تكلّف الميزانية الحكومية شيئاً، ولن تكون الدولة في موقع المحاسبة ولا المساءلة عن أي تقصير وحيف لو كانت هي من يتولى ذلك، بل سوف تكون هذه الجمعيات بمثابة الفتيل Fuse التي تستبدلها السلطة وتسلب الاعتماد منها وتتابع أعضائها قضائياً لتظهر في صورة المنافح عن الفقراء والحريص على مصلحتهم، بينما لا يجرؤ أحد من الفقراء ولا من الجمعيات أن يرفع صوته مطالباً بمحاسبة السلطة ومساءلتها عن صرف المال العام وتسييره وعن تضييعها لحقوق الفقراء وتفريطها في رعايتهم.

وقد حدث في الجزائر أن اتّهم الفقراء والمحتاجون أعضاء بعض الجمعيات باختلاس المعونات، لأنهم عاشوا في كنف سلطة تمارس عليهم الأبوية والتسلط في كل تفاصيل حياتهم، حتى صاروا يرون ما تقدّمه الجمعيات إنما هو مما تمنحه السلطة إياهم، بينما يكدّ أعضاء هذه الجمعيات ويجهدون ويريقون ماء وجوههم في تحصيل الأموال والمؤونة والمعونات من الأثرياء والتجار وعامّة النّاس.

ولقد كانت المؤونة والمساعدات والألبسة والأدوية والرعاية الطبية والتعليمية والمناشط الترفيهية التي تشرف عليها هذه الجمعيات تسدّ ثغرة كبيرة ويستفيد منها عشرات بل مئات الآلاف من العائلات الفقيرة والأرامل والأيتام والمرضى، لكنّ الحقيقة المرّة والتي يأبى كثير من الناشطين اجتماعياً وخيرياً الاعتراف بها - وقد صارحني بعضهم بها وعاينتُ من تجارب شخصية طرفاً منها - أن تلك الآلاف المؤلفة من الأُسَر لا تستفيد شيئاً في دينها ولا أخلاقها ولا مشاركتها في رفع الغبن عن نفسها ولا رفع وعيها لتدرك من كان سبب فقرها ولا قرباً من مشروع الإسلاميين ونصرة له، باعتبار شبابهم وجمعياتهم هم من يحملون العبء الأكبر في العمل الخيري بكل أشكاله.

إن هذه الأسر تأكل وتكتسي وتتداوى ويتعلم أبناؤها ثم تنصرف لحال سبيلها، لا يجمعها بهذه الجمعيات رابط ولا مشروع ولا حتى مشاعر وعواطف متميّزة. وإذا توقفت جمعية أو ارتأت أن تقطع صلتها بهذه الأسرة أو تلك، فإنّ الجمعيات كثيرة ولن يعجزها أن تجد من يعولها ومن نفس الطيف الإسلاميّ، في غياب أي تنسيق أو آليات تثمّن الجهود وتجعلها روافد تصبّ في نهر مشروع أكبر.



وواضح أن القمع والاستئصال والترهيب والسجون والقتل الــذي تـعـرض لـه الإسلاميون والمتعاطفون معهم خلال عشرية التسعينيات، قد بقيت آثاره حاضرة في مشاعر وتفكير مـن نجا منهم مـن المحرقة، والذين اختار كثير منهم العمل الخيري بعد عام ٢٠٠٠.

كما أن الجمعيات الأخرى ذات المرجعية الإخوانية أو السلفية تفضّل أن تنأى بنفسها عن أيّ سلوك أو برنامج عمل يضعها موضع الرافض للسلطة أو المعارض لها. كيف والاعتمادات القانونية بيد هذه السلطة نفسها التي تمتلك في أي لحظة حلّ أي جمعية ومتابعة أعضائها بأي تهمة تافهة تنغّص معايشهم وتدخلهم في دوامة من الإجراءات والتضييق، يعرف كلّ مواطن في الدول العربية أنه لن يربحه مهما كانت قضيته عادلة أو كان بريئاً من أي تهمة.

عندما أستحضر التجربة الجزائرية في العمل الخيري بعد ٢٠٠٠ ، فإنّ الأمر انتقل إلى مستوى آخر من العلاقة بين الجمعيات الخيرية الإسلامية

والسلطة، أكثر ألفة وحميمية وتعاوناً، من خلال اللقاءات والملتقيات والتنسيق والثناء على مجهودات الحكومة والإشادة بها، بحيث لا يكاد يخلو نشاط خيري من حضور رسمي مبالغ فيه وحفاوة وترحيب وشهادات تكريمية لن ترى مثله أبداً في أوروبا والولايات المتحدة وكندا، ولا حتى في دولة الكيان الصهيوني.

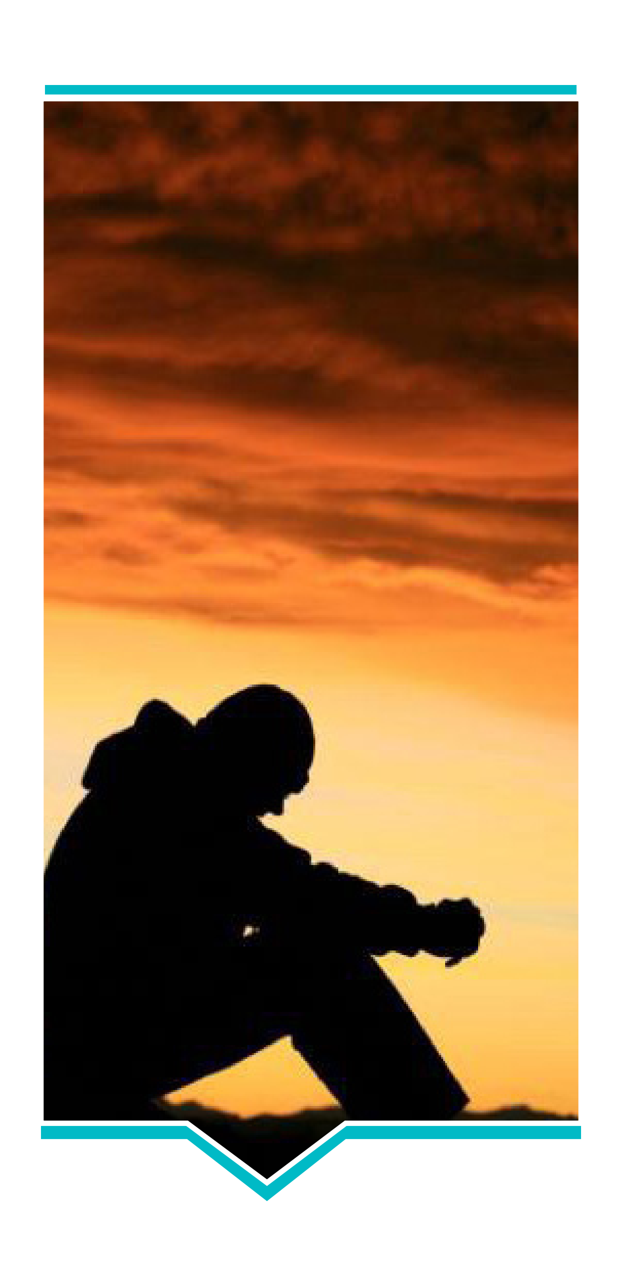
» ولا أعلم سبباً لهذه التصرفات سوى الخشية من التضييق الأمني والإداري والمحافظة على خيط صلة يحمي هذه الجمعيات من التعسف، وإلا فما جدوى أن يحضر هذه المناشط الخيرية رئيس بلدية ورئيس دائرة شرطة وضابط في الجيش أو الدرك وممثل عن الولاية (المحافظة) وآخر عن الحماية المدنية؟

بينما هم لم ينفقوا ديناراً واحداً ولا وفّروا أي دعم لوجيستي إلا في النادر الذي لا يقاس عليه، والذي كان من أجل مصلحة النظام على المستوى المحلي أو الوطني.

تغفل هذه الجمعيات الخيرية - على فضل واستقامة وتديّن ونزاهة وإخلاص أعضائها في الغالب - وتسيء التقدير والتصرّف حين تحسب أن النظام يتعاطف فعلاً مع أنشطتها ويدعمها لأنه يريد الخير لشعبه ويعطف على الفقراء والمحرومين. وتخطئ وتسيء التقدير حين تظنّ أنها بهذا الأسلوب من الحفاوة والتعاون والتنسيق سوف تكسب السلطات أو مؤسسات النظام، أو حتى أشخاصاً منهم لصالح قضيتها ومشروعها إن كان لها قضية ومشروع.

والمشكلة الأكبر أن هذه الجمعيات تكوّن أعضاءها وتربّيهم على قدر كبير من السيولة في المفاهيم والتصورات، تجاه الواقع والنظام السياسي والاقتصادي الذي يصنع هذا الواقع البئيس المتخلف. وتجعل منهم أشخاصاً يشعرون بالإشباع العاطفي والنفسي لمجرد توفير الطعام واللباس والدواء، وأن هذا في حدّ ذاته إنجاز ونجاح يستحق أن تُبذل فيه الأوقات والأموال والمُهج، ويؤسّسون بوعي أو بدونه لشرعية النظام ويرسّخون هذه الشرعية بخدماتهم أولا بتعاملهم مع السلطة ثانياً.

بينما مئات الآلاف ممن يستفيدون من هذه الخدمات في المقابل يؤيدون هذا النظام وينتخبون أحزابه التي لا تنفق ديناراً واحداً في العمل الخيريّ، ولا تلتفت أصلاً للفقراء والمحرومين إلا في المناسبات الانتخابية وبطريقة فجّة وانتهازية واضحة.



نعم؛ هناك رجال مال وأعمال وأثرياء وتجار ومحسنون لا يثقون إلا في أبناء المساجد وشباب الحركة الإسلامية في الجمعيات، ويسلمونهم الأموال والغذاء والدواء واللباس ويأتمنونهم عليه ممّا يجعلهم تحت ضغط بلوغه للمستفيدين منه وتحقيق رغبة المنفقين أداء للأمانة، لكنني لا أرى في هذا سبباً وجيهاً ولا مبرراً مقنعاً في هذه السلبية والتعامل البارد مع قضايا الأمة وشعوبها والضعف أمام الأنظمة والانسحاب الكلي من مقاومة الظلم والاستبداد والفساد الذي هو السبب الرئيس في صناعة الفقر والفاقة والمرض والجهل والتخلف الذي ما نشأت هذه الجمعيات إلا لتصحيحه وتجاوزه، فإذا بها تصبح كأنها ملحقات لوزارات الداخلية أو الشؤون الاجتماعية أو وزارة الشؤون الدينية والأوقاف!

ما المطلوب إذن؟

لا يطالب عاقل بتحوّل هذه الجمعيات إلى أحزاب سياسيّة أو مشاريع مقاومة بالمعنى السياسيّ.

ولا يطالب عاقل بوقف الخير والإحسان لفقراء المسلمين.

لكن ما يجب تصحيحه وإعادة النظر في منطلقاته هو هذا الربط والتلازم بين العمل الخيري الحرّ المستقلّ وبين الإقرار بشرعية النظام السياسي وأحقيته بالحكم والهيمنة والتسلط بلسان الحال وأحيانا بلسان المقال، والحرص المبالغ فيه في استرضاء مؤسساته الأمنية والإدارية والسياسية والانسحاب من كلّ أشكال الرفض والمقاومة والتحدي لأنظمة وظيفية فاسدة مستبدّة تجعل من بين خططها أن تحوّل كلّ الفضاء السياسي و(الخيريّ) والثقافي والإعلامي إلى ملحقات وأذرع وظيفيّة. وقد نجحت إلى حدّ بعيد في ذلك مهما تمحّلت وتكلّفت قيادات وأعضاء العمل الخيري في نفيه أو تبريره أو تسويق صورة مختلفة عن علاقتها بالنظام السياسي ومؤسساته.

إن أول ما يجب أن تشتغل عليه هذه الجمعيات الخيرية هو التأسيس لمفهوم المفاصلة (أو في أدنى المستويات: التمايز) مع النظام السياسيّ ومؤسساته. وأن طلب الاعتماد القانوني ليس عقبة أمام ذلك حين يكون وراء هذه الجمعيات مشروع ورؤية محددة ورسالة واضحة وقيادات ليس أكبر أهدافها هو تحقيق النجاح بالمعيار الرقمي والعددي.

ثم يجب عليها أن تشتغل وبعمق وإصرار على تأهيل الثقات والأمناء من شبابها وتكوينهم بعيداً عن السيولة العاطفية والنفسية والفكرية التي تعتبر التدافع والمزاحمة للباطل تشدداً وربما إرهاباً ونقصاً في الحكمة والتدبير. وهذا يتطلب رعاية خاصة وبرامج تأهيل وتكوين ووعياً بضرورة ذلك واعتباره مرتكزاً أساسياً لا مجرد نافلة أو ترف.

ثم لا بدّ من إعـادة نظر في تصور هذه الجمعيات للشريحة الشعبية المستهدفة بأنشطتها، والتي يغلب عليها الفقر والحاجة والأمية والتخلف والهامشية في الحياة العامة. هل المطلوب هو إبقاؤها في هذا المستوى

والسعي فقط من أجل إشباع حاجاتها الأساسية من غذاء ولباس ودواء ومأوى؟ أم هناك إمكانية للارتقاء بها لتصبح فاعلة في تقويض أساسات النظام السياسي المتسبب في إفقارها وتجهيلها وتهميشها؟

لقد بقي الفقراء فقراء، ولم تسهم هذه الجمعيات بكلّ الأموال التي تنفقها في نقلهم من حالة الفقر إلى حال الكفاف فضلاً عن الغنى، ولن تستطيع ذلك أبداً لأنه يتطلب موارد ومؤسسات وصلاحيات دولة، لا جمعيات وجودها مرتهن بقرار إداري أو قضائي أو نزوة أمنية.



ولا بدّ كذلك من سقف مرتفع من التحدّي والاستعداد للمقاومة والمناكفة للأنظمة والتشغيب عليها وفضح سياساتها، ومناورتها في المساحات التي تسمح بها طبيعة هذه الجمعيات، وباستغلال كل الثغرات القانونية والسياسية الممكنة، وعدم الركون إلى المناطق الآمنة والبحث عن التوافقات والخضوع للابتزاز بالاعتماد القانوني ودون تهوّر ولا مسارعة إلى الصدام، وهي معادلة دقيقة لا أزعم أبداً أنها سهلة ميسورة ولكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ.

إنّه ليس عيباً ولا انتهازيّة أن يسعى العاملون في الجمعيات الخيريّة إلى استثمار جهودهم والأموال والأوقات التي ينفقونها في توعية الناس وتأليبهم على من كان سبب فقرهم وربطهم بمشروع التغيير الذي تؤمن

به هذه الجمعيات لكنّها تخفيه ظناً منها أنها عاجزة أو طمعاً في استيعاب واختراق مؤسسات الدولة وهو الإنجاز الذي فشلت فيه جماعات سياسية وجهادية تتبنى خط المقاومة والصراع بوضوح فضلاً عن غيرها.

لا شكّ أن الأمر يتطلب شجاعة في تشخيص وضع هذه الجمعيات الخيريّة وأهدافها وغاياتها وتقييماً لجهودها ومشاريعها في العقدين الأخيرين إذا كان موضوع مقالنا هو الحالة الجزائرية. كما يتطلب تفكيراً وفق نمط غير تقليدي ولا منهزم أمام سطوة الأنظمة السياسية ومؤسساتها الأمنية والإدارية، واستفادة من الدروس الكثيرة التي يمكن استخلاصها من التجارب المحلية والعربية والإسلامية.

وقد يقتضي الأمر سنوات من التفكير الفردي والجماعي والاستفادة من الذكاء الجماعي وتأصيلات شرعية، وتأسيساً لأنماط جديدة ومختلفة من الخطاب والممارسة.

لكن ما لا ينبغي الركون إليه هو الرضا بالوضع الذي تعيشه الجمعيات الخيرية، وانسحابها من معركة التحرير والوعي والنهضة الشاملة وتدرّجها لتصبح جمعيات وظيفية تشيد بها الجرائد وتستضيفها الفضائيات ويثني عليها الملأ المستكبرون في السلطة، وتملأ أخبارها وصورها مواقع التواصل الاجتماعي بينما يفوز بالثمرة غيرها من العلمانيين والمستبدين والمفسدين.

وقد لاحظت أن حضور العلمانيين في العمل الخيري محدود جداً، ولا يمكن مقارنته أبداً بالحضور الإسلامي، ومع ذلك فإن غياب العلمانيين لم يجعلهم يخسرون معاركهم السياسية ومواقع نفوذهم وقدرتهم على التأثير في الرأي العام وصناعة القرار داخل المؤسسات الرسمية.

وأنا أفهم جيداً أن صِلاتِهم ووشائجهم مقطوعة مع شعبهم لهذا لا يهتمون بشأنه ولا يجهدون أنفسهم في خدمته، وإنما تصب جميع خططهم

واستراتيجياتهم في الهيمنة والتسلّط عليه وحكمه. وبرغم ذلك فإن هذه المقارنة ضرورية لتثير نقاشاً حول الجدوى من العمل الخيريّ ومدى خدمته للأمة في قضاياها الكبرى ابتداءً من حقها في أن تحكمها شريعة ربها ومنهاجه، وانتهاء بتحقيق النهضة والتنمية الشاملة.



وفي الختام فإنني لا أعمّم الحكم على كل جمعية ولا على قياداتها بأعيانهم، فهناك استثناءات حتماً، لكنها استثناءات قليلة وغير مؤثرة ولا تنقض الظاهرة العامّة أو تلغيها، فالحكم للغالب الأعمّ.

وأخيراً يحقّ لنا أن نسأل:

ألا يمكن ممارسة العمل الخيري إلا وفق هذا النمط التقليديّ السائد؟ والذي يستفيد منه النظام أولاً وأخيراً بينما يبقى الفقراء يمدّون أيديهم ينتظرون إحسان جمعيات يعدها النظام خطراً عليه وتهديداً له ويرصد كل تصرفاتها ومواردها ويجعلها تحت مجهر أجهزة الأمن بينما يطلق العنان لنوادي الروتاري والليونز والماسونية وعشرات الجمعيات ذات التمويل والعلاقات المشبوهة؟

شخصيا أعد العمل الخيري الذي تمارسها أكثر الجمعيات قد سقط في أبشع أشكال الوظيفية، وتلميع صورة النظام وترسيخ سلطته وترقيع أخطائه الكارثية وستر عوراته في الشق الاقتصادي والاجتماعيّ. وأرى أن هناك إمكانية

لاستثمار أمثل وأكثر عمقاً وفعالية وامتداداً من هذا النمط، الذي يصبح فيه الاعتماد القانوني سيفاً مصلتاً فوق أعناق هذه الجمعيات. وأنه قد آن الأوان لفتح نقاش يبدأ في دائرة كلّ جمعيّة ليتوسّع ويشمل دوائر أوسع.



بطبيعة الحال فإن المؤمنين بنموذج الدولة القطرية، والذين ترسّخت فيهم صنميتها فأصبحوا لا يتصورون شكلاً آخر يستطيع الإنسان المسلم من خلاله أن يمارس دوره ويعيش عقيدته وينفذ شريعة ربّه في نفسه وأسرته ومجتمعه، والذين يخشون من مجرّد التفكير في الموضوع وفتح نقاش جريء حوله كمقدمة ضرورية قبل الشروع في أي عمل؛ هؤلاء سيبدو لهم المقال لغواً لا فائدة فيه ودعوة للتمرد على الدولة ومؤسساتها وتحريضاً على الفتنة والوقيعة بين النظام والشعب وتهديداً لكل المكاسب التي حققتها هذه الجمعيات، مع أنني أشكّك في أنها قد حققت مكاسب أصلاً!

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ....)

عسكر مصر

والثورة

للقصة بقية — الجزء الثاني

محمود جمال

من اللحظة الأولى من تنصيبه "رئيساً"، اتخذ السيسي طريق التنكيل في صفوف معارضيه سواء العسكريين أو المدنيين، حتى ينفرد بالحكم، وتتحول منظومة الحكم العسكري من منظومة المؤسسة العسكرية الحاكمة، إلى منظومة الفرد العسكري "الحاكم الديكتاتور" المسيطر والمهيمن، مستغلاً بالأساس الدعم الدولي والإقليمي الذي يحظى به منذ اللحظات الأولى لحكمه.



منذ أحداث ٣٠ يوليو ٢٠١٣ م، حاول أفراد (مجموعات) داخل الجيش تغيير ذلك الوضع الذي تسير عليه قيادات المؤسسة، لعدة أسباب من أهمها الوضع السياسي المضطرب الذي تشهده الدولة المصرية، والسياسات الخاطئة التي يتبعها النظام وتحمل القوات المسلحة وحدها مسؤوليتها؛ كذلك طريقة تعامل النظام مع الأوضاع في شبه جزيرة سيناء، والخسائر المتتالية التي يتلقاها الجيش في هذه المواجهات؛ وكذلك التنازل عن جزيرتي تيران وصنافير، والتنازل عن حقوق مصر في المياه والغاز.

المتابع لمحاولات التغيير التي حاول البعض أن يقوم بها من داخل تلك المؤسسات السيادية بعد انقلاب ٣٠ يوليو ٢٠١٣ م، يرى أنها متعددة ومتكررة، واتخذت عدة أشكال منها محاولات دستورية وقانونية للتغيير عن طريق الانتخابات ومنها من اتخذ أسلوباً عنيفاً.[١]

القيادات التي نكّل بها السيسي داخل المؤسسة العسكرية وجهاز المخابرات العامة، كانت تراقب الوضع بشكل عام وكانت تحاول أن تشتبك أو تصنع حالة حراك لإحداث تغيير، أو على الأقل تحقق أجزاء من أهدافها لكي تعود وتشارك في منظومة الحكم مرة أخرى، وكانت تلك المحاولات بالشكل الآتي:

(١) تسريبات للسيسي

بعد التفكيك والتركيب الذي فعله السيسي بجهاز المخابرات العامة، اعتمد بعض المنكَّل بهم من داخل الجهاز استراتيجية في مقاومة للسيسي ونظامه وهي استراتيجية تتناسب مع قوتهم وقدراتهم، "استراتيجية كشف الفساد"، بهدف تثوير الشعب، كانت تتركز تلك الاستراتيجية التي بدأت عام ٢٠١٥ م، بالأساس على إخراج بعض التسريبات لأعمدة ذلك النظام والتي كانت ترى أنها

[١] كيف تصنع انقلاباً داخل المؤسسة العسكرية؟، محمود جمال، المعهد المصري للدراسات، الرابط

ستحدث حالة من الضجر الشعبي إذا أُحسن استخدامها، ولكن هذا النهج كان مستمراً فقط حتى النصف الأول من عام ٢٠١٨ وتحديداً قبل إقالة اللواء خالد فوزي، ولكن منذ ذلك التاريخ تمت السيطرة بشكل كبير على جهاز المخابرات العامة من قبل ذلك النظام؛ ومن المعلوم بالضرورة أن قوة أي مسئول في مؤسسة سياديه تصبح معطلة بشكل كبير عند خروجه من منصبه.



(٢) التنازل عن تيران وصنافير وثورة الغلابة

الاتفاق الذي وقعه السيسي مع الملك سلمان في أبريل من عام ٢٠١٦ م، والذي تنازلت به مصر بشكل نهائي عن جزيرتي تيران وصنافير، نتج عنه حراك في الشارع المصري، وكان قضية وطنية مجمعة تجمعت عليها كافة القوى الوطنية، ولم يكن بعض القيادات العسكرية بعيدة عن هذا الحدث الهام، وأعلن الفريق سامي عنان والفريق أحمد شفيق والفريق مجدي حتاتة في وقتها، رفضهم لذلك التنازل وتمسكوا بأن الجزر مصرية، وأن "من يفرط في الأرض عليه أن يثبت مصريته".[٢]

---

[٢] شخصيات عسكرية وسياسية تنتقد التفريط بتيران وصنافير، الجزيرة نت، تاريخ النشر ١٥ يونيو ٢٠١٧ م، تاريخ الدخول ١٧ مارس ٢٠٢٠ م، الرابط

» جاءت تظاهرات ثورة الغلابة في نوفمبر ٢٠١٦ م، بعد اجتماع المجلس العسكري في أكتوبر ٢٠١٦ م، والذي شهد بعض التجاذبات بسبب سوء إدارة البلاد، والتي يمكن أن تؤول بالخطر على المؤسسة العسكرية ككل، وطالبت قيادات بتعديل سياسات إدارة النظام في بعض الملفات، وإذا زاد الغضب تجاه المؤسسة العسكرية، فالمصلحة تقضي أن السيسي وإدارته يكفي عليهم فترة رئاسية واحدة، وهذا ما قابله السيسي بغضب شديد، ويرى البعض أن خوف النظام من ثورة الغلابة ٢٠١٦ م، والانتشار العسكري الذي قامت به قوات التدخل السريع "قوات حماية السيسي" لم يكن خوفاً من التظاهرات بل كان خشية استغلال تلك التظاهرات من قبل البعض داخل الجيش. وبعد نجاح السيسي في السيطرة على أحداث ثورة الغلابة أقال 11 عضواً من داخل المجلس العسكري.[٣]

وجدير بالذكر أن السيسي في تعامله مع أصحاب وجهات النظر المختلفة معه من العسكريين وغيرهم لا يفهم سوى لغة واحدة وهي لغة التنكيل، حتى وإن كان بينه وبين أحدهم صداقة قوية أو روابط عائلية. فعند النظر إلى قائمة القادة العسكريين الذين نكل بهم منذ يوليو ٢٠١٣ م، وإلى وقتنا هذا، نرى أن من بينهم الفريق محمود حجازي رئيس الأركان السابق، وهو صهر السيسي، فحسن عبد الفتاح السيسي هو زوج داليا محمود حجازي، ولكن نتيجة الاختلافات في وجهات النظر بين السيسي ومحمود حجازي وتحديداً في ملف التعامل مع متمردي سيناء ومكافحة الإرهاب بشكل عام داخل مصر، أطاح السيسي بمحمود حجازي في شهر أكتوبر ٢٠١٧ م. وكما نقل أحد العسكريين، وكنت قد ذكرت ذلك في موضوع سابق، يبحث الأسباب التي دفعت السيسي للإطاحة بالفريق محمود حجازي، فالفريق حجازي غادر مصر واتجه للولايات المتحدة لحضور مؤتمر رؤساء الأركان لمناقشة الحرب على الإرهاب يوم الأحد الموافق ٢٢ أكتوبر ٢٠١٧ م، وفي كلمته التي ألقاها "حجازي" في المؤتمر، وأثناء لقاءاته على هامش المؤتمر أظهر ضعف الجيش المصري في مكافحة الإرهاب ووضح أن طريقة تعامل النظام المصري في مكافحة الإرهاب التي تبنى على المواجهة العسكرية فقط طريقة لم تحقق نجاحات طيلة السنوات الماضية.[٤]

---

[٣] أسماء القيادات المطاح بهم بعد ثورة الغلابة، الرابط

[٤] مصر: إقالة رئيس الأركان ـ الأبعاد والتفسيرات، المعهد المصري للدراسات، محمود جمال، الرابط

بالإضافة إلى ذلك فقد ذكرت بعض المصادر أن السيسي قد نُقل إليه الحفاوة التي استُقبل بها وعومل بها حجازي في الولايات المتحدة، بما قد يؤشر للنظر إليه كبديل محتمل للسيسي مما دفع الأخير لأخذ قرار عزل صهره قبل أن يعود إلى أرض الوطن.


محمود حجازي

(٣) انتخابات الرئاسة ٢٠١٨ م

لم يغفل الطرف المناوئ لعبد الفتاح السيسي، أن يشتبك معه في انتخابات الرئاسة التي جرت عام ٢٠١٨ م، كمحاولة جديدة للتخلص من السيسي، فقام على مستوى القيادات الفريق سامي عنان، والذي يُظن أنه "قائد الطرف المناوئ للسيسي" بالترتيب والتنسيق مع بعض القيادات العسكرية داخل الجيش المصري، منهم الفريق سامي دياب قائد الحرس الجمهوري الأسبق وغيره، لإعداد خطة الترشح، حاول عنان أن يأخذ موافقة المجلس العسكري هذه المرة، ولكن لم يحسم المجلس العسكري الأمر سريعاً، كما تم حسمه بالرفض في محاولة ترشح عنان في ٢٠١٤ م، وفهم الطرف المناوئ هذا الأمر على أن التجاهل لا يعني الرفض، فقرر عنان إعلان نية ترشحه.

لكن السيسي واجه الأمر بشكل عاجل ونكل بعنان بدعوى مخالفته للقواعد العسكرية، كونه عضو مجلس عسكري "مستدعى" وكان يجب أخذ موافقة المجلس العسكري قبل إعلان نية ترشحه. التنكيل بعنان كان بالاستعانة بالمشير طنطاوي وأعضاء المجلس العسكري إبان يناير ٢٠١٨ م، والذين يوصفون

”برجال السيسي“، بعد تخلصه من مجلس ٢٠١٣ م، بشكل كبير، فالمتبقي الآن من مجلس ٢٠١٣ م، هما عضوان فقط، الفريق أول محمد فريد حجازي، رئيس الأركان، واللواء ممدوح شاهين، مساعد وزير الدفاع للشئون الدستورية والقانونية. ومما جاء نصاً على لسان أحدهم في إحدى الجلسات ”طنطاوي وعنان على خلاف دائم منذ عام ٢٠٠٦ م، وتحديداً من اللحظة الأولى من تعيين عنان رئيساً للأركان، طنطاوي لا يقبل فكرة أن عنان هو الرجل العسكري الذي يجلس على كرسي الرئاسة، طنطاوي كان مع التنكيل بعنان في يناير ٢٠١٨ م، وكان يرى أنها ”شدة ودن“ لكي يستيقظ من نومه ويترك حلم الرئاسة“.

هذا بخلاف إعلان الفريق أحمد شفيق نيته للترشح لمنافسة السيسي في انتخابات ٢٠١٨ م، ولكن قوبل هو الآخر بالتهديد والابتزاز، وسرعان ما تراجع خوفاً من التنكيل.

(٤) محمد على

هل محمد على كان يُحرَّك من قِبل الطرف المناوئ للسيسي، أم كان محمد على يتحرك من تلقاء نفسه؟ إن من يرغبون في التغيير يتتبعون الوضع العام، وبالطبع حالة محمد علي أربكت نظام السيسي، وكان من المنطقي التواصل معه من أجل تحقيق بعض الأهداف من قبل الطرف المناوئ للسيسي داخل الجيش وداخل جهاز المخابرات العامة، خاصة وأنهم يعلمون جيداً أن السيسي ليس مبارك ٢٠١١ م، وأن السيسي لديه الكثير من الإمكانيات والقدرات[٥]. فالطرف المناوئ كان يعلم مدى قوة السيسي، لذلك لم يعمل على أن تكون المعركة في بدايتها معركة صفرية، ولكن كان يضع استراتيجية للمعركة على أن تكون ضغطاً في البداية، لكي يتحصلوا على بعض أهدافهم، التي منها المشاركة الفعلية في الحكم، وأن يكون وضع الجيش كأيام حكم حسني مبارك، وتقليص أدوار بعض الشخصيات التي يعتمد عليها السيسي ومنها اللواء عباس كامل، والعميد محمود السيسي، واللواء مصطفى الشريف.

---

[٥] تسجيلات محمد علي: قراءة بين السطور، المعهد المصري للدراسات، الرابط

أود أن أشير إلى نقطة جديدة هنا، وهي ورود معلومات مهمة، تقول إن محمد علي من قبل الطرف المناوئ من قبل عام ونصف، من أجل تنفيذ خطة ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ م، وهذا قد يفسر تأكيدات محمد على لكل الأطراف المدنية التي تواصلت معه، أن السيسي نهايته الفعلية ستكون يناير ٢٠٢٠ م، ولكن تفهم السيسي للخطر الذي أصبح عليه بعد ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ م، واجتماعه بالأطراف المناوئة له بعد رجوعه من الولايات المتحدة الأمريكية آخر سبتمبر ٢٠١٩ م، بوساطة من المشير حسين طنطاوي وبإيعاز من محمد بن زايد، دفع تلك الأطراف للتوقف عن اتخاذ إجراءات أخرى كانت قد اتفقت على تنفيذها، ناكثين وعودهم لمحمد على.

» جدير بالذكر أن السيسي كان ديدنه التنكيل، وكان لا يلتفت لتلك المجموعات منذ يوليو ٢٠١٣ م، إلى ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ م، ولكن بعد ٢٠ سبتمبر أيقن السيسي أن الخطر آتٍ من داخل الجيش ومن داخل جهاز المخابرات العامة، لذلك عمل على احتواء تلك الأطراف، واتخذ عدة إجراءات مذكورة دراسة سابقة بعنوان "عنان وحركة ديسمبر: الأسباب والتداعيات".



للقصة بقية:

من وجهة نظر الباحث، السيسي ديدنه التنكيل بكل المختلفين معه سواء من المدنيين والعسكريين، وأنه سيسير في هذا الاتجاه ولن يلتفت إلى الأصوات المعارضة له، حتى وإن احتوى الموقف بعد ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ م، ولكن هذه كانت "عملية خداع استراتيجي" ليس إلّا.

المواجهة المقبلة ستكون مختلفة تماماً عن المواجهات التي حدثت من قبل بين الجانبين، فالمواجهة القادمة من وجهة نظر الباحث ستكون "مواجهة صفرية" وأي حراك قادم مهما كان شكله ستشتبك معه بالأساس تلك الأطراف الراغبة في التغيير داخل الجيش وداخل المؤسسات السيادية، ولن تتوقف في منتصف الطريق كما فعلت في يناير ٢٠٢٠ م، لأنها لن تدخل في حالة تفاوض مرة أخرى مع السيسي.

المرحلة التي كنّا نصفها سابقاً بمرحلة جس النبض والتفاوض بين طرفين مهمين داخل القوات المسلحة قد انتهت بالفعل من وجهة نظري، وقد دخلنا حالياً مرحلة الحسم وفرض السيطرة، التي سيتضح بموجبها أي المعسكرين أقوى، وأيهما يملك نفوذاً وأوراق ضغط أكبر وأكثر.

نظام السيسي، على مدار السنوات الماضية، أثبت عدم قدرته على مواجهة الأزمات التي واجهها. وعلى رأس تلك الأزمات، الأزمة الاقتصادية التي تواجهها مصر والتي تتفاقم بمرور الوقت.

وخلال المرحلة المقبلة، مأن المرجح أن نظام السيسي، سيواجه أزمتين، قد تزيد من الغضب الشعبي ضده بشكل كبير:

١ المرجح حسب المختصين في الشأن الاقتصادي، أن الوضع الاقتصادي المصري ذاهب إلى الأسوأ خلال الفترات المقبلة، ومن أهم أسباب هذا التدهور الآثار التي ستترتب على الأزمة الحالية التي يشهدها العالم بسبب فيروس كورونا، وبحسب المختصين لا تزال موجة انتشار الفيروس وتداعياته الاقتصادية في بداياتها، ومن الصعوبة الكبيرة التوقع الرقمي لمدى الانتشار وسرعته، وبالتالي للتداعيات السلبية له على الاقتصاد المصري، ولكن الطبيعة الريعية للاقتصاد المصري هي التي ستجعله أكثر وأسرع وأعمق استجابة للمؤثرات الخارجية السلبية، بما يُحدث أثاراً شديدة السلبية على هذا الاقتصاد على المدى القريب والمتوسط. وبناءً عليه فإن تدهور الوضع الاقتصادي في المرحلة

المقبلة، سيزيد من حالة الضجر الشعبي على السيسي ونظامه، وبالتالي سيكون هناك احتمالات لحدوث حراك شعبي، قد يستغلها الطرف المناوئ للسيسي.[٦]

٢ من ضمن الأزمات "الكارثية" التي ستواجه السيسي ونظامه في الفترة المقبلة، وقد يترتب عليها حدوث حالة غضب شعبي كبير أزمة "سد النهضة". يتضح للمراقبين لملف سد النهضة عدم قدرة نظام السيسي، على إدارته بشكل صحيح يحفظ لمصر حقوقها المائية، ويحد من آثاره "الخطيرة" التي ستلحق بالمصريين. السيسي يعاني في التعاطي مع ملف سد النهضة سياسياً، والمفاوضات التي جرت بين الجانبين المصري والأثيوبي بمختلف أشكالها ثنائية كانت أو بحضور وسطاء، أظهرت "فشل" الجانب المصري في فرض شروطه أو حتى أخذ ملاحظاته في الاعتبار عند تنفيذ المشروع، في مرحلتي التشييد وملأ السد. فالأثيوبيون ماضون قدماً في البدء بتخزين مياه السد بالشكل الذي يريدونه، ولا يلتفتون لملاحظات الجانب المصري.

أثيوبيا بناء على سلبية الموقف المصري، صارت تصرح بتهديدات سياسية وعسكرية لتحذير الجانب المصري، بل وصل الأمر إلى حضور الجانب المصري اجتماعات يغيب عنها الجانب الأثيوبي، كما حدث في واشنطن أواخر شهر فبراير ٢٠٢٠ م.[٧] من وجهة نظري نظام السيسي في اختبار حقيقي، وإذا فشل كعادته في مواجهة تلك الأزمة، سيصل الغضب الشعبي إلى أعلى درجاته، وبالتالي من يرغبون في إزاحته ستكون أمامهم فرصة، ليس فقط للتخلص من ذلك النظام، بل للحفاظ على الأمن القومي المصري بما يوجد مصلحة مشتركة مع القوى السياسية والشعبية.

---

[٦] تداعيات فيروس كورونا على الاقتصاد المصري، د/أحمد ذكر الله، المعهد المصري للدراسات، الرابط

[٧] بعد تغيب إثيوبيا.. مصر: سندافع عن مصالحنا بسد النهضة، العربية نت، تاريخ النشر ٢٩ فبراير ٢٠٢٠ م، تاريخ الدخول ٢١ مارس ٢٠٢٠ م، الرابط

ختاماً، وبناء على ما سبق، وللإجابة على السؤال الذي يتكرر "ما إمكانيات وقدرات معارضي السيسي؟" يجب الإجابة على عدد من الأسئلة الهامة. لكن بالرغم من أن الأسئلة لا توجد لها إجابات كاملة حتى الآن، أحاول أن أستشرف في حدود المتاح حالياً:

« ما أدوات القوة الحقيقة التي لا زال الطرف المناوئ يمتلكها ليستخدمها في إطار عملية التدافع مع السيسي؟



الطرف المواجه للسيسي، من الظاهر إن إمكانياته وقدراته لا تؤهله للقيام بانقلاب عسكري على السيسي في الوقت الحالي، وكما قال أحد العسكريين، إن ذلك الطرف لا يريد أن يكون تغيير السيسي عن طريق انقلاب عسكري خشن، ويرى أن الخروج الأمثل للسيسي، يكون مثل خروج مبارك في فبراير ٢٠١١ م. إمكانيات ذلك الطرف تسمح له فقط بالاشتباك مع حالة تغيير قادمة، وليس صناعتها، وقدرته على التأثير ستكون موجودة في ظل اشتعال حالة حراك بالأشكال الآتية على سبيل المثال: التوجيه، الحشد، إخراج وثائق تحرج النظام، الضغط على المؤسسة من الداخل.

« ما النفوذ الذي لا زالت تمتلكه "دولة مبارك" كونها ركناً أساساً يعتمد عليه معارضو السيسي؟

السيسي منذ مجيئه للحكم جاء برجاله، ونظام مبارك قارب على ١٠ سنوات من رحيله، وأكثر رجال دولته الذين كانوا موجودين داخل المؤسسات الأمنية والعسكرية والاقتصادية والمعلوماتية، قد تركوا مناصبهم، مما قد يفقدهم قدرتهم على التأثير، ولكن كما وصف بعض العسكريين، أن دولة السيسي لم ترث دولة مبارك بشكل كلي، وما زالت دولة مبارك لها بعض التأثير في بعض الملفات، وبالطبع فإن معارضي السيسي داخل الأجهزة السيادية ينسقون مع تلك الدولة، لأن لها ثأراً مع دولة السيسي التي تحاول أن تخرجها بشكل كلي وتصبح هي المتولية والمسيطرة.

وفاة الرئيس الأسبق حسني مبارك، لم تجبر رجال دولته على الاستسلام، بل سيحاولون البحث عن رمز آخر ليكون في مقدمتها، ولعل بعد تنحي حسني مبارك، عملت تلك الدولة سريعاً على البحث عن قائد آخر لها، لذلك كان الفريق أحمد شفيق هو مرشح الدولة العميقة، والمؤسسة العسكرية في نفس الوقت. من أهم نقاط قوة دولة مبارك هي الانتشار العرضي والطولي في المحافظات "أعضاء الحزب الوطني ورؤوس العائلات" والذي لم ينجح السيسي في إقامة صفقة بينه وبينهم، وهذا يمكنها من حشد أعدادها عند الحاجة، وكذلك القيام بدعم لمرشحين بعينهم، والحشد للتصويت، وهذا ما حدث مع الفريق عنان، فرجال الحزب الوطني في المحافظات هم من كانوا يقومون بعمل التوكيلات للفريق عنان.

هل سيستلم الطرف المناوئ للسيسي لمصيره المحتوم في ضوء غياب مصادر حقيقة للقوة تجعله مؤثراً في المشهد؟

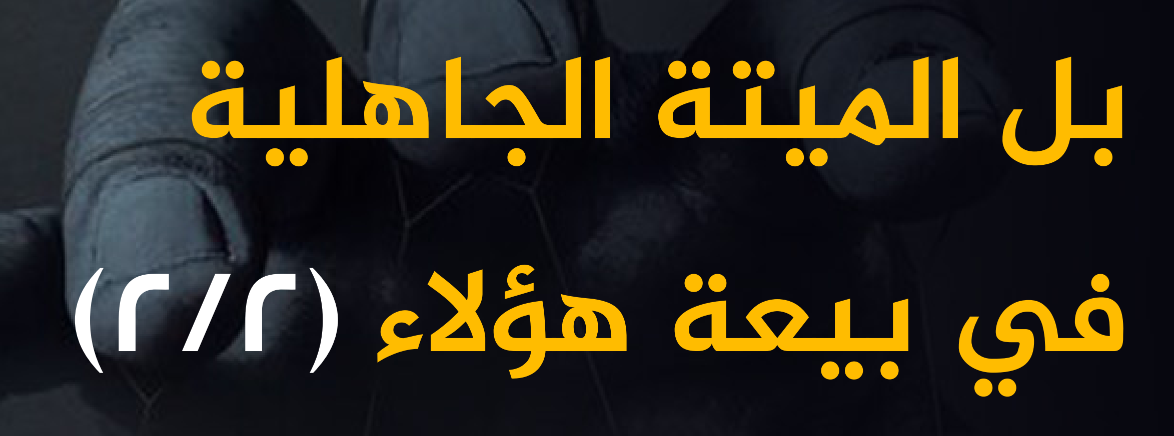
الطرف المناوئ للسيسي أيقن أنه لم ولن يحقق مبتغاه في ظل استمرار دولة السيسي، والمواجهات القادمة سيشتبك فيها من حيث ما انتهى في ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠ م، وإذا كنا نقول إن هدف رحيل السيسي لم يكن هو الهدف الأول في مواجهة ٢٠ سبتمبر، فتلك المعادلة تغيرت وسيكون هدف رحيل السيسي في مقدمات أهدافهم في المواجهات القادمة، ليقين ذلك الطرف بأن المعركة أصبحت "معركة صفرية" وأن الاستسلام معناه التنكيل بهم بشكل أكبر.

ذكرنا من قبل أن إمكانيات ذلك الطرف لا تؤهله للقيام بانقلاب عسكري وهو لا يحبذه في نفس الوقت. وعلاقاته الخارجية ليست كعلاقات عبد الفتاح السيسي، وهم يعلمون أنه في الظرف الحالي السيسي ليس مبارك ٢٠١١ م، وأن الأطراف الخارجية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت متمسكة بالسيسي، لأنه يسير معها في اتجاه واحد في ملفات هامة على رأسها صفقة القرن والتعاون الاستراتيجي مع إسرائيل، وأيضاً محاربته للإسلام السياسي وعلى رأسه جماعة الإخوان المسلمين، فضلاً عن الدور الهام في ليبيا، وابتزاز أوروبا في ملف الهجرة غير الشرعية، كل ذلك يجعل أطرافاً مثل دولة الإمارات العربية، والمملكة العربية السعودية فضلاً عن إسرائيل وأمريكا وفرنسا، تتمسك به بشكل كبير وتقدم له كل الدعم.

ولكنهم على الجانب الآخر يؤكدون أن العلاقات الخارجية الاستراتيجية هي بين المؤسسة العسكرية وبين الأطراف المختلفة، على رأسها الولايات المتحدة، علاقة مؤسسات وليست علاقة أشخاص، ويرون أن الرهان يكون على المؤسسة وليس على شخص، وبالتالي إمكانية تعامل الولايات المتحدة مع شخص آخر غير السيسي، عندما تسوء الأوضاع ممكنة في الفترات المقبلة.

وبالرغم من أن إمكانيات وقدرات الطرف المناوئ للسيسي، غير مكتملة، فإنهم يسعون للحصول على أدوات وإمكانيات بشكل أكبر خلال المرحلة المقبلة، ويحاولون تمدد علاقاتهم الخارجية بشكل أكبر، حتى يصبحوا رقماً صعباً في المواجهة القادمة، ولكنهم في نهاية المطاف لا يسعون لتغيير بالقوة، فالتغيير الذي يريدونه تغيير ناعم هادئ يحدث من داخل الجيش، مدعوماً بظهير شعبي غاضب، ولا خلاف لديهم أن مصر لا يصلح لها غير الحاكم العسكري، والذي يمكن في أفضل أحواله أن يستعيد دولة محمد حسني مبارك.

وفي ضوء كل ما سبق، كيف ستكون بقية القصة؟ استمرار السيسي وزيادة تمكنه؟ إزاحته عن طريق طرف آخر واستعادة دولة مبارك في أفضل الأحوال؟ أم أن الشعب المصري ستكون له كلمة أخرى؟



بل الميتة الجاهلية في بيعة هؤلاء (٢/٢)

عبد الله الصعيدي

بدأنا في المقال السابق مناقشة لتعلق علماء السلطة وعملاء الشرطة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن ماتَ وليس في عُنُقِه بيعةٌ، ماتَ مِيتَةً جاهليةً"[١]. وذكرنا معنى الجماعة كما قررها العلماء، ثم وصلنا إلى السؤال الذي يقول:

ما مضمونُ البَيْعَة التي مَنْ ماتَ دُونَها كانت مِيتَتُهُ جاهليةً؟ أَهِي بَيْعَةٌ على أصول الشريعة وصريحِ الوحي؟ أم بيعَةٌ على امتِدادِ النفوذ الغربيِّ وهَيْمَنَةِ نُظُمِهِ الوضْعِيَّة على جُمهور أهلِ الإسلام؟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمـارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (١٨٥١م/١٤٧٨/٣).

الجواب البعيدُ عن التَّعْمِيَةِ والنفاق لائحُ واضحٌ، وقد حَسَمَ القرآنُ هذا الباب بِمِثل قوله تعالى: "يا أَيُّها النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ " .



فاشتَمَلت الآيـةُ الكريمةُ على ركيزتين عظيمتين من ركائز الفقه السياسي الإسلامي، إحداهما: تخييرُ عموم المسلمين في إبرام التعاقد على بيعة الإمام، وهذا منصوصٌ في الشرط. والأخرى: إبانَةُ المضمون الذي تَنْعَقِدُ عليه البيعة ومـادَّة الحُكم التي مدارُها على إقامة الدِّين وتنفيذِ شرائعِه، وهو مذكورٌ في جُملة الشرط وجوابه، قال ابن الجوزي: "فبايِعْهُنَّ" المعـنـى: إذا بـايَـعْـنَـكَ على هذه الشرائط فبايِعْهُنَّ"[٢].

وقد تقرَّرَ عقلاً ونقلاً أن المشروطَ لا وُجودَ له إلا بشرطه، ومتى بَطَل الشرطُ بَطَلَ المشروط. لذلك خُتِمَت الآيةُ بالاستغفار النَّبَوي والرحمةِ الإلهية تنبيهاً على نِياطَةِ الجزاءِ الموعود بالشرط الْمَشروط، قال أبو السعود: "قوله: {واستغفر لَهُنَّ الله} زيادة على ما في ضمنِ المبايعةِ؛ فإنها عبارةٌ عن ضمانِ الثوابِ مِن قِبَلِهِ عليهِ الصَّلاة والسَّلام بمقابلةِ الوفاءِ بالأمورِ المذكورةِ مِن قِبَلِهنَّ. (إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: مُبالِغٌ في المغفرةِ والرحمةِ، فَيَغفرُ لهنَّ ويرحمُهُنَّ إذا وَفَّيْنَ بما بايعنَ عليهِ")[٣].

(٢) زاد المسير، ط١ دار الكتاب العربي، (٢٧٥/٤).
(٣) تفسير أبي السعود، ط١ دار إحياء التراث، (٢٤١/٨).

وهذا جَلِيٌّ كما في حديث عائشة رضى الله عنها قالت: "كانت المؤمناتُ إذا هاجَرْنَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمْتَحَنَّ بقول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ) إلى آخر الآية، **قالت عائشة:** فمَنْ أَقَرَّ بهذا مِن المؤمنات فقد أَقَرَّ بالمحنة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَقرَرْنَ بذلك مِن قَوْلِهِنَّ، قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انطلِقْن فقد بايَعْتُكُنَّ» [٤]. قال الإمام النووي: "فقد أَقَرَّ بالْمِحْنَة" مَعْنَاهُ: "**فقد بَايَعَ الْبيعَة الشَّرْعِيَّة**" [٥].

وصحَّ عن أُمَيمَة بنتِ رُقَيْقَةَ التَّيْمِيَّةَ أنها قالت: «أَتَيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساءٍ لنبايِعَه، فأَخَذ علينا ما في القرآن: ألّا نشرك بالله شيئا حتى بلغ ولا يعصينك في معروف، فقال: فيما استَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ، قلنا: الله ورسوله أرحَمُ بنا من أنفُسنا، قلنا: يا رسول الله: ألا تصافحنا؟ قال إني لا أصافح النساء، إنما قَوْلي لامرأةٍ واحدةٍ قَوْلي لمائة امرأة» [٦].

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: "بايَعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصحِ لكل مسلم" [٧].

وقال عمرو بن عطية: "أَتَيتُ عُمرَ بنَ الخطاب وأنا غلامٌ؛ فبايَعْتُه على كتاب الله، وعلى سُنَّة رسوله، هِيَ لنا وهِيَ علينا، فَضَحك وبايَعَني" [٨].

---

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة، (١٨٨/٣ح٢٧١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيعة النساء، (١٤٨٩/٣ح١٨٦٦)، واللفظ له.
(٥) شرح النووي على مسلم، ط٢ دار إحياء التراث، (١٠/١٣).
(٦) أخرجه أحمد في المسند، مسند النساء، حديث أُمَيْمة بنت رُقَيْقة، (٥٥٦/٤٤ح٢٧٠٠٦)، وصحَّحه الشيخ شعيب في الحاشية.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: البيعة على إقام الصلاة، (١١١/١ح٥٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، (٧٥/١ح٥٦).
(٨) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب: الخلافة مع الامارة من قسم الأفعال، باب: في خلافة الخلفاء، (٦٨٧/٥ح١٤١٩٤)، وابن عبد البر في التمهيد، (٣٥٤/٦١).

وقال ابن بطال في بَيْعةِ الحسن لمعاويةَ رضي الله عنهما: "فسلَّمَ الحسنُ الأمرَ إلى معاويةَ وصالَحه، وبايَعَه على السمع والطاعة على إقامة كتاب الله وسُنَّة نبيِّه"(٩).

وتأمَّل قولَ الله تبارك وتعالى هنا: "ولا يعصينك في معروف" مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَأمر إلا بمعروف، ولا يَنْهى إلا عن المنكَر، كما قال الله جلَّ شأنه في نَعْتِه: "يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ"، لكنْ دَخَلَ القَيدُ على بَيْعَة المعصوم لأنَّ مَن يَخْلُفُهُ في مَنصِبِ الإمامة مَسْلُوبُ العصمة من الزَّلل والزَّغَل، فالنَّصُّ وإن خُوطِبَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، بَيْدَ أن المرادَ غيره. قال ابن زيدٍ: "إنّ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم نبيُّه وخِيرتُهُ مِن خلقِهِ، ثم لم يَستحلَّ له أَمْرَ رعِيَّتِه أمراً إلا بشرط، لم يقل: (ولا يعصينك) ويترك حتى قال: (في معروف) فكيف ينبغي لأحد أن يُطاع في غير معروفٍ وقد اشتَرَطَ اللهُ هذا على نبيه"(١٠) ؟!



وقال الكيا الهراسي: "شَرَطَ في النهي عن عصيانه إذا أمَرَهُنّ بالمعروف، لئلا يترخَّص أحدُ في طاعة السلاطين إذا لم تكن طاعة لله تعالى"(١١).

(٩) شرح صحيح البخاري، ط٢ مكتبة الرشد، (٨/٩٧).
(١٠) تفسير الطبري، ط١ مؤسسة الرسالة، (٢٣/٣٤٥).
(١١) أحكام القرآن، ط٢ دار الكتب العلمية، (٤/٤١٠).

وقال الإمام القرطبي: "إنما شَرَط المعروفَ في بيعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى يكون تنبيهاً على أنّ غيْرَه أَوْلى بذلك وألزمُ له وأنفى للإشكال"[١٢].

وقد نَقَلَ غير واحد من أهل العلم الإجماعَ على عدم اشتراط الإمامِ النَّصَّ على بُنود البيعة الواردة في الآية الكريمة، وعَلَّلُوا ذلك بوضوح الأمر واستبانةِ السبيل، فانتَفَت الحاجة إلى استدعاء صيغة الشرط، وبهذا اعتَذَرُوا أيضاً عن عدم ذِكر الأركان والدعائم الإسلامية الكبرى إبَّانَ عَقْد العَقْد؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لِنَصاعةِ أَمْرها وظُهور حُكْمها، قال ابن جزي الغرناطي: "تَرْكُ هذه الشروط لأنها قد تقرَّرَتْ وعُلِمتْ مِن الشرع بالضرورة، فلا حاجة إلى اشتراطها"[١٣].



وقال الشوكاني: "لَم يَذكرْ في بيعَتِهِنَّ الصلاةَ والزكاةَ والصيامَ والحجَّ، لوضوح كَوْن هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام، وإنما خَصَّ الأمورَ المذكورةَ لكثرة وقوعها من النساء"[١٤].

(١٢) تفسير القرطبي، ط٢ دار الكتب العلمية، (٧٥/١٨).
(١٣) التسهيل، ط١ شركة دار الأرقم، (٣٦٩/٢).
(١٤) فتح القدير، ط١ دار ابن كثير، (٢٥٨/٥)..

وبِما أنَّنا نُكابِدُ أياماً غَشِيَتْنا فيها غواشي الجاهلية، وحُيِّدَ فيها سلطان الإسلام، ونَشَأتْ ناشئةٌ جديدةٌ في محاضن التغريب، لم تَكْتَحِلْ عُيونُها بجَرَيان أحكام العقيدة والشريعة على الجامِعة الإسلامية، فاقتضى هذا الواقعُ الْمُرُّ استِدعاءَ النَّصِّ على شرائط البيعة ومضمون الحُكم، لِاشْتِباهِ واقِعنا المعاصِر بأيَّام التأسيس، وقد انْكَمَشَتْ حاكِميةُ الإسلام على الجَبْهةِ الحياتية وطالَ عليها الأَمَدُ، فَقَسَتْ أقلامٌ كُثْرى وأسماءٌ كُبرى، وتَنَكَّرَ "فُقهاء الحداثَة" لكثير من مضامين الفقه السياسي الإسلامي، مِنْ جرَّاء ثورة التأويلات على دين الله تعالى، فتَحَتَّم بَعْثُ الممارسة النبوية وَفْق سيرتها الأُولى لإنارة الدُّلجة وإقامة الحُجَّة.



وقد جَزَم علماؤُنا بأنَّ أحكام نَصْبِ الإمام متى انْتَفَتْ أُصولها ومَرَاماتُها، سَقَطَتْ مُوجِباتُ إقامة الإمام، قال العضد الإيجي في نظير هـذا: "تَرْكُهُم لنصبِهِ لتعذُّرِه وعدم شرطِ الإمامة ليس تركاً للواجب؛ إذْ لا وجوب ثَمَّةَ عليهم على ذلك التقدير؛ إنما الوجوب إذا وُجِدَ الجامع لشرائطها؛ فلا محذورَ في ذلك التَّرك"[١٥].



فإن قيل: إذا لم تنتصبْ مُقوِّمات الإمامة الدينيَّة، فلا أقَلَّ من إقامة المصالح الدنيوية؟ وعليه فانعقادُ البيعةِ على هذا المعنى مُعَلَّلٌ وجيهٌ. وجوابُنا: أنَّ هذا الإيرادَ مدفوعٌ بالنَّصِّ الصريح الذي يَمنَعُ نَصْبَ الإمام على الدنيا دون الأُخْرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم: ...ورَجَلٌ بايَعَ إماماً لا يُبايِعُه إلا لدنياه، إنْ أعطاه ما يريد وَفَى له، وإلا لم يَفِ له»[١٦].

(١٥) المواقف، ط١ دار الجيل، (٥٨٣/٣)، وتقدَّم النقلُ عن الإمامين: الجويني والقرافي؛ في ذلك
(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: من بايع رجلا لا يبايعه إلا للدنيا، (٧٩/٩/ح٧٢١٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار...، (١٠٣/١/ح١٠٨).

قال ابنُ الملقّن: "لأن بيعةَ الإمام إنما تكون لله وعلى إتيان حدود الله، ولِتَكُون كلمةُ الله هي العليا؛ أُعطِيَ أو لم يُعْطَ"[١٧] .



فانتِصابُ الإمامِ يُرادُ لعبودية الله تعالى أصالةً بإقامة قانون الدِّيانَة، ثُمَّ تُسْتَلْحَقُ المصلحةُ الدنيويةُ تِباعاً، كما قال أئمة العلم في مقصود الإمامة: «إقامةُ الفَرْض وعِمارةُ الأرض»، وقالوا: «حراسةُ الدين وسياسةُ الدنيا»، لذلك اقتضى التَّتَبُّعُ والاستقراءُ ترجيحَ الْمَعادِ على الْمَعاش، وتقديمَ الآخرة على الأُولى، قال الإمام التقي السبكي: «يجِبُ على السلطان؛ أو نائِبِه الذي له النَّظَر في ذلك؛ أن يَقصِدَ مصلحةَ عموم المسلمين، ومصلحةَ ذلك المكان، والمصالحَ الأُخرويةَ ويقدِّمَها على الدنيوية»[١٨].

وقال الإمام الشاطبي: "المصالح الْمُجْتَلَبة شرعاً والمفاسدُ الْمُسْتَدفَعَة، إنما تُعتَبَر مِن حيث تُقَام الحياةُ الدنيا للحياة الأُخرى، لا مِن حيث أهواء النفوس في جَلْبِ مصالحها العادية، أو درء مفاسدها العادية"[١٩]

(١٧) التوضيح، ط1 مكتبة النوادر، (٥٩٥/٣٢).
(١٨) فتاوى السبكي، ط دار المعارف، (١٨٥/١).
(١٩) الموافقات، ط١ دار ابن عفان، (٦٣/٢).

سي إتش محمد كويا

الوزير الذي غير بوصلة مسلمي مليبار

••• صبغة الله الهدوي •••

إنه ينحدر من أسرة فقيرة، أبوه طبيب يوناني عادي لم تتسع دائرة حلمه، ثم دار به الزمان حتى اعتلى عرش رئاسة وزراء كيرالا بعد أن تخطى مراحل مهمة في حياته، وأثر في قلوب الآلاف المؤلفة، وتسللت كلماته إلى تلك القلوب التي اشتاقت إلى رؤيته وسماع خطبه.



إنه سي إتش محمد كويا، المسلم الوحيد الذي اعتلى رئاسة وزراء كيرالا الهندية، المنصب الذي حرمه نظام المجتمع الهندي على المسلمين، فكلما رأوا مسلماً يعتلي المنبر رشقوه بالأحجار أو شوهوه في الإعلام، ووضعوه على قائمة الإرهاب، لكن في كيرالا انكسر ذلك الصنم الهندي، وتلاشى المستحيل أمام هيبة سي إتش، الذي رفع قدر أمة "مابلا" (الاسم الذي يطلق على مسلمي مليبار) قاطبة بعد أن كانت تتعثر في طريقها إلى الأمام.

إن الفضل يرجع إليه في نهضة مسلمي مليبار، الذين اضطهدوا بين فكي الشيوعية التي همها الأول تحطيم سلطة الدين وتحميله ثقل التخلف، وكونجرس الذي لا يختلف كثيراً عن بي ج ب اليوم، فتاريخ سي إتش ليس حكايات تنسج من الخيال؛ بل هو أوسع من تلك الحكايات التي تحاك حول الأبطال حتى تمجد وتحمد عبر الأجيال، وأعمق من تلك الأساطير التي سمعناها عن بعض الرموز السياسية. إنها حكايات ذات ألم وحزن، ونضال وانتصار، وصبر وغضب، وثورة وهدنة، فالحديث عن شخصية سي إتش محمد كويا حديث ذو شجون، تتشعب أسطره وتمتد صفحاته كلما ركضت وراء سيرته.

وُلد بطلنا في أسرة متواضعة، في أسرة خاملة الذكر لا تذكر كثيراً ولا تروى سيرتها في المحافل، وكان أبوه علي مسليار عالماً دينياً يشتغل بخدمات دينية بسيطة إلى جانب ما تمهره في الطب اليوناني الذي لاقى رواجاً كبيراً بين مسلمي مليبار، إلا أن الأسرة كانت تتشرف بانتسابها وولائها للأمة الإسلامية.

نشأ وترعرع في كنف والدين كريمين ملآ في جوانحه حب التفاني والتضحية للأمة الإسلامية، وعاش فترة الصراعات الاستقلالية التي حدثت في الهند، وكان شاهداً على أبرز المحطات التي مرت بها الهند لتصل إلى شاطئ الاستقلال عام ١٩٤٧ م ، وعمل بالشأن العام في وقت مبكر، واتخذ من كالكوت مسقط رأسه مقراً لمبادراته السياسية، واستنشق هواء الحرية والكرامة وحن إلى تحرير الوطن من مخالب الاحتلال البريطاني، وسار في ركاب كبار الزعماء السياسيين الذين اهتموا بالتمكين للمسلمين.

انضم مبكراً إلى رابطة المسلمين التي تنامت حتى أصبحت نظيراً منافساً لكونجرس العملاق، وكان للحزب شعبية كبيرة في مليبار لا سيما بعد أن انجذب إليه أشراف من قادة الأمة أمثال السيد عبد الرحمن بافقيه الذي كان يشتغل بتجارة الأرز ثم صار سياسياً محنكاً، وكان سيداً وقوراً مهاباً بين الناس، وكذلك سيد أحمد فوكويا بانكاد، وله ولأبنائه دور ريادي في قيادة العمل السياسي لمسلمي مليبار إلى وقتنا هذا. وانضمام هؤلاء الأشراف إلى خيمة الرابطة زادها هيبة ووقاراً، وأكسبها شعبية كبيرة بين العوام والعلماء.



فأول تجربة سي إتش محمد كويا كان في جريدة "تشاندركا" (الهلال) لسان الحزب الذي أسس له أرضية صلبة في ساحات السياسة، حيث كان المسلمون يعيشون فترة حاسمة في تاريخهم، فترة تعج بالصراعات والمشادات التي وصلت إلى حد الاشتبكات الدامية أحياناً، وقتها كانت الهند تنشطر على المصالح الدينية، وتعلو في أجوائها نداءات محمد علي جناح لتشكيل باكستان، إلا أن مسلمي مليبار الذين يعيشون أقصى جنوب الهند لم تكن لهم أي صلة بهذه النداءات، ولم يلقوا لها آذاناً بل ضربوا بها عُرض الحائط، إيماناً بالمجد الذي صنعوه في الهند وثقةً بالتاريخ الذي يحكي بطولات المسلمين.

فجريدة "تشاندركا" لها الفضل الكبير في ترسيخ قضية رابطة المسلمين، فانطلقت تنافح عن قضايا الأمة الإسلامية وتدعوها إلى استعادة المجد والحرية، وتعرضت لعدة حملات معادية من جانب الحكومة الاحتلالية، فأغلقت

فترة يسيرة في الثلاثينات ثم واصلت مشوارها إلى يومنا هذا، وظل سي إتش كاتباً ماهراً يعالج القضايا السياسية ويصرح قرارات حاسمة، فرويداً رويداً اتجهت إليه الأنظار لما كان يمتلك قلماً حاداً يهاجم في عباراته كل من يعادي مصالح الأمة الإسلامية.

فبعد أن ظفرت الهند بالاستقلال وانشق الحزب إلى شقين، شق توجه إلى باكستان تحت قيادة لياقت علي خان، وشق بقي في الهند تحت قيادة قائد الملة محمد إسماعيل صاحب الذي يعد الأب الروحي لحزب رابطة المسلمين لعموم الهند، الذي يتمتع بحضور فاعل حتى الآن في برلمان الهند.

فمنذ الاستقلال قطع كلا الفريقين كل العلاقات، واتخذ الجميع أفكارهم الخاصة ورؤاهم المتفردة، وأكثر زعماء المسلمين من جنوب الهند بما فيها كيرالا وتاملنادوي وكرنادكا أحبوا الاستقرار في الهند، ولم يفضلوا ولم يختاروا باكستان ، بل فضلوا الثبات في معركة الهند التي ستلد عما قريب حوادث مهمة تحسم مصير المسلمين، فما كان لهم أن يتركوا إخوتهم وأشقاءهم في أرض جوفاء من القيادات، أو أن يجعلوهم صيداً سهلاً لشباب السياسة الهندية. فوقف سي إتش محمد كويا كأمثال الكثيرين من زعماء الرابطة بولاية كيرالا في الهند مع الذين آثروا البقاء في الهند، ليسجل التاريخ مسيرته وملحمته بمداد من الذهب، فانتخب لمديرية كالكوت عام ١٩٥٢ م لتفتح له أبواب السياسة الواسعة، وفي عام ١٩٥٧ م انتخب للمجلس التشريعي لولاية كيرالا ثم استمرت تلك الرحلة إلى رحيله من الدنيا، خطابات تهز جدران المجلس، وردود ارتجالية مفحمة، وضربات قاضية لكل من أراد النيل من الأمة، وحكمة بالغة لترقية المسلمين وإظهارهم في الساحات العامة، ورأس لا يخضع حتى أمام الحواجز الشائكة التي نصبت أمامه.

وتعد فترة الخمسينات من أبرز الفترات السياسية التي شهدتها ولاية كيرالا، حيث كانت حكومتها أول حكومة شيوعية منتخبة في العالم، وكانت بحوزتها الكثير من الخطط التي قد تنال من الأمة الإسلامية كما جربتها في

كثير من الدول، فتخطت رابطة المسلمين بكل حذر واحتياط حتى اشتركت في ثورة التحرير التي أطاحت بالحكومة الشيوعية من العرش، فوقتها أدركت الأحزاب والجبهات السياسية في كيرالا خاصة والهند عامة أهمية وقوة رابطة المسلمين التي ظلت تتقوى وتتنامى حتى في خضم المعارك الضروس، مع أن الكثيرين من كبار زعماء الأحزاب الهندية وعلى رأسها حزب المؤتمر الهندي الوطني تخيلوا أن نهاية الرابطة قد أوشكت، وأن مكانتها اضمحلت حتى أطلق كل الجهات المختلفة المعادية للرابطة هجمات سياسية شرسة بهدف فض الرابطة ودمجها في أحزابهم، لكن انقلب السحر على الساحر، حتى استعادت الرابطة هيبتها وقوتها واستقرت بخطوات واثقة في ميدان السياسة، متحدية كل الأحزاب والجبهات.



فلما توفي مرشده السياسي ك أم سيتي صاحب تولى منصب "المتكلم" المجلس التشريعي لكيرالا، ليكون أصغر متكلم في تاريخ المجلس، فمن أبرز المناصب التي تقلدها سي إتش كانت في مجال التربية والتعليم، وكان وزير كيرالا لشؤون التربية لأكثر من مرة، واقتنص هذه الفرصة الثمينة لنهضة المسلمين وغيرهم من الأقليات المضطهدة، وأطلقت عدة مشاريع بناءة لصناعة النهضة العلمية في الأوساط الفقيرة، ووجه عنايته الخاصة نحو المسلمين الذين هم الضحايا البارزة الذين حملت عليهم ثمن الاستقلال حتى لم يجدوا مكاناً يليق بهم في الساحات الحكومية، وتعرضوا لممارسات عنف وتنكيل من قبل جهات مختلفة، فإدراكاً لخطوة هذا الوضع المزري أطلق سي إتش مبادرات كثيرة في

مجال التربية، من أهمها توفير الدراسات الابتدائية والثانوية مجاناً، وبناء عدة جامعات في مناطق أغرقها طوفان التخلف وأحرقها نيران الرجعية والتقهقر.

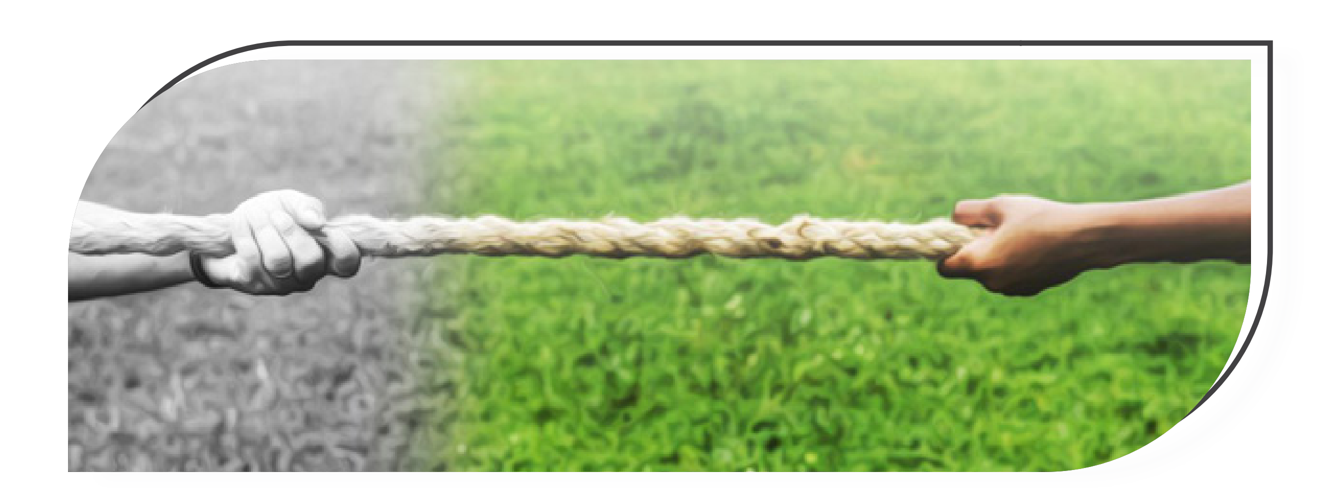
فقصة تأسيس جامعة كالكوت أوضح دليل على تضحية هذا القائد البطل الذي أفنى عمره لتحقيق هذا الهدف النبيل، فألقى من أجلها خطابات نارية أثرت مشاعر الأمة الإسلامية وحركت سواكنها وأدمعت مدامعها وهزت أركان قلوبها، حتى انهالت التبرعات والصدقات من شتى الجهات لتحقيق هذا الحلم الكبير الذي أسس على همة أمة وخطة قائد نحرير.

تقع جامعة كاليكوت على حدود مقاطعتي مالابرم وكالكوت، فهاتان منطقتان يسكن فيهما المسلمون بتعداد كبير، بينما يشكل مسلمو مقاطعة مالابرم نسبة ٧٠ في المئة مقابل الهندوس، وهي إحدى المقاطعات التي يسكن فيها المسلمون بأغلبية ساحقة أمثال مرشداباد في بنغال ورامبور في أوتاربرديش وغيرها من مقاطعات آسام وكشمير.

شكلت جامعة كاليكوت التي أسست عام **١٩٦٨** م علامة فارقة في تاريخ مليبار، حيث غيرت الصور النمطية التي التصقت بمسلمي مليبار من التخلف، والتشرذم، والأمية، والرجعية الفكرية، وأهدت لهم صباحاً جديداً من الأمل الذي يوصلهم إلى أعلى مناصب الحكومة، ولا زالت تلك الرحلة مستمرة بكل مجد وشرف، وتخرجت فيها عباقرة الأدب والفنون مما جعلها إحدى الجامعات المرموقة في الهند.

فمن أهم الإنجازات التي رفعت معنويات الأمة، وأتاحت لها فرصاً كبيرة وأثارت ضجة واسعة في أوساط الشيوعية والعلمانية والتنويرية ما قام به سي إتش من منح تقدير اللغة العربية في المدارس الحكومية، وهذه الخطوة الجريئة تركت تبعات إيجابية في صالح الأمة، حيث سنحت الفرصة لمن تعلم العربية ولو بشكل غير رسمي أن يتقلد منصب المعلم في المدارس الحكومية، وذلك مما زاد فرص العمل لكثير من العلماء المسلمين الذين عانوا من البطالة سنين، وخلال هذه

الثورة العربية سمعت من بعض المراكز عبارات سخرية من الأمة تستفز المشاعر مثل "والآن لا نرى أحداً في الشوارع ممن يصنعون مظلاتنا وينسجونها، لقد دخلوا صفوف المدارس معلمين".



لأن نسج المظلة وصناعتها كان من أبرز الصناعات اليدوية التي مارسها العديد من المسلمين، ورغم حجم السخرية التي تحملها هذه العبارات وغيرها فإنها تعبر عن مدى التغيير الذي أنجزه سي إتش بهمته وإصراره.

وفي موقف آخر نراه يزمجر ويزأر ولا يهدأ، وذلك بعد أن جاء أول رئيس وزراء للهند، ومنظر مصيرها جوهر لال نهرو إلى كيرالا مهاجماً رابطة المسلمين عبر خطاباته التي أججت نار الفتنة، فقال أثناء خطبته "رابطة المسلمين أشبه بحمار ميت"، وطارت هذه العبارة محبوكة السخرية والكراهية كالنار في الهشيم، مما أطرق رؤوس أتباع الرابطة ومحبيها، وأخجلهم وأذلهم، فما كان بوسعهم تحمل هذه العبارة التي وردت من قائد بارز مثل نهرو.

فلما وصل هذا الحديث وتناهى إلى مسمع سي إتش انفعل وتأثر، فعزم على إطلاق رد شرس على هذا الخطاب، فعقدت الرابطة مؤتمراً كبيراً اختطف الأضواء الإعلامية، وتجمع فيها آلاف من أتباع الرابطة شوقاً إلى جواب يرد كيد المتربصين، فقام سي إتش بشموخه ومهابته، ونظر إلى محيط هائج مائج من البشر، فاستمد من تلك الأرواح العصية على الذل والهوان القوة وقال بصوته الجهوري وبعبارته الصارمة:

"أيها الرئيس المحترم، اعلم بأن رابطة المسلمين ليست بحمار قضى نحبه؛ بل هي أسد يستريح في عرينه، فإياك أن توقظه وتزعجه".

فما أن فرغ من كلامه إلا والمحيط البشري يموج حماسة وانفعالاً، ويسمو همةً، لقد وجدوا في خطاب سي إتش ما يسلي خواطرهم التي جرحتها عبارات جوهر نهرو.

لقد كان سي إتش نادرة من نوادر الزمان، وقف لسانه للأمة، ووهب منصبه للأمة، ولم يستغل وضعه ولم يتجر به لأحد، ورفض كل المغريات التي ساومته، وكان غضبه جيشاً لا يقهر، وحبه مسكاً وعنبراً، وعلى حد تعبيره: "سأظل إعصاراً في وجه الذين يتربصون بنا ويسلبون حقوقنا، ونسيماً عليلاً بارداً لمن يقف معنا".

وقد كان من أجمل أيام مسلمي مليبار وأفخرها وأعزها ذلك اليوم الذي اعتلى سي إتش عرش رئاسة وزراء كيرالا، ممثلاً كل الأحزاب التي جمعت ألوان كيرالا الديمقراطية، وأقصت كل الأحزاب اليسارية، وحدثت تلك المعجزة عام **١٩٧٩** م بعد أن تنازل الحزب الشيوعي الهندي عن الحكومة تاركاً فجوة واسعة، ليتولى سي إتش قيادة الحكومة ومعه كل الأحزاب الديمقراطية من كونجرس بجميع أجنحته التي انشقت عنه، وحزب الاشتراكية الشعبية، وغيرها.

إلا أن فترته لم تطل، ولكنها تركت بصمة جميلة في سياسة كيرالا التي تلاعبت بمستقبل مسلميها ولم تسمح لهم بالتطور والتغير، وأثبتت بكل برهان بأن بحوزة المسلم طاقة روحية وسياسة مخططة بإمكانها أن تركّع كل جبهات الطغاة.

كلما قرأت سيرة هذا البطل أغرقتني الدموع وأورقت لي الأمنيات، فأحلم كأنني أعيش مع جيله الذي حظي برؤية قائد مناسب في وقت مناسب، وأسأل نفسي:

» هل يعود لنا تاريخ المجد من جديد، ونتخلص من هذه النار وذاك الحديد؟

» فتلك أمنيات أنسجها رغم أنها تناقض الواقع بكثير.



حقاً لقد ترك لنا ملحمة تاريخية يستمد منها الأجيال الصاعدة كيمياء السعادة وروح النضال الذي لا ينتهي، حتى ظللت أسرح في الخيالات التي تبعث الفخامة والشموخ، وأتعجب ككل من يقرأ سيناريوهات الهند السياسية من هذا القائد الذي كسر المستحيل ومحا الصور النمطية الرثة.

رحل سي إتش عن الدنيا يوم ٢٨ من شهر سبتمبر عام **١٩٨٣** م، بعد أن صمم جيلاً شامخاً يمضي قدماً نحو الهدف النبيل، وظلت كلماته تتعالى في سماء الأمة كلما ضربتها رياح الفاشية وأردتها ذليلة مستهانة، ولم يزل الجيل الجديد بشبابه وشيوخه يستحضرون عالم سي إتش لتلقيح أفكاره وإيداعها في قلوب الأجيال.

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)



منظومة القيم وأثرها
في مواجهة الأوبئة والجوائح



أظهر وباء كورونا (كوفيد ١٩) أن قوة المجتمعات وسلامتها وتماسكها مرهونة لا سيما في الشدائد بمدى حضور الجانب القيمي فيها، إذ كثير من المبادرات الإنسانية والاجتماعية الخيرة التي ظهرت في هذه الأزمة والتي عالجت مشكلات عميقة وكثيرة، إنما صدرت بدوافع قيمية فاضلة.



كما أن بعض المظاهر السلبية التي عمقت معاناة الناس وآلامهم باستغلال ظروف الشدة، إنما مصدرها تصدع القيم، أي افتقار أصحابها إلى القيم.

ومن ثم فإن من باب الحرص على أمن المجتمع وتماسكه واستقراره وسلامته وكفايته وطمأنينته: أن تعزز هذه القيم الدينية والوطنية والإنسانية والاجتماعية في المجتمع؛ عبر التوعية بها من خلال الوسائل المختلفة (مواعظ ودروس، برامج إعلامية، لوحات إشهارية، برامج المجتمع المدني...)؛ من أجل إكساب المواطنين قوة مناعية (على المستوى الصحي والنفسي والاقتصادي والاجتماعي...) تجاه هذا الوباء المستجد (كوفيد ١٩) وسائر الأوبئة والجوائح والشدائد والأزمات المتوقعة.

وتأسيساً عليه، فإن تعزيز منظومة القيم وتنميتها داخل الأوطان لمن الأمور التي تسعى مجتمعات اليوم إلى تحقيقها في مجالها على جميع المستويات (النفسية والصحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية...)، ذلك بأن ترسيخ القيم في المجتمع تسهم في حفظ أمنه الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والصحي في جميع الحالات التي يمر بها، والمراحل التي يتقلب فيها.

"وإن الفترة الحرجة التي تمر بها بلدان العالم اليوم تحتاج إلى استحضار هذه القيم المتنوعة (أسرية، اجتماعية، وطنية، إنسانية، دينية..)، من أجل التخفيف من التبعات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لهذا الوباء، والأوبئة المتوقعة."

ومن ثم فإن الحاجة ماسة للعودة إلى منظومة القيم في هذا الوضع الحرج وفي وقت الشدائد والأوبئة والجوائح وتفعيلها في المجتمع: (الطمأنينة الإيمانية، وتعميق الشعور العقدي الذي يقوم على الرضا بقضاء الله وقدره والدعاء وحسن الظن بالله، والتضامن

والتكافل والتعاون، والبذل والعطاء، والأخوة، والإحساس بالآخرين، والوحدة الاجتماعية، والصدق والأمانة، وتحمل المسؤولية، ونشر الطمأنينة والتفاؤل والأمل، والإيجابية، والتصدي للشائعات، والدعم النفسي، والتماس الأسباب المناسبة للخروج من الأزمة، والأمن الغذائي، والمصير المشترك...)، وغير ذلك من القيم .

وبناء على ما تقدم؛ فإذا كانت ثقة العالم بالمستقبل قد اهتزت، فإن ثقتنا بقيمنا الخالدة التي توجه الحياة، وتضفي عليها الطمأنينة والسكينة والاستقرار ثابتة لا تتزحزح.

ومن هذه القيم: ❶ القيم الإيمانية:

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (الأنعام:٤٣)، فالمطلوب عند نزول البلاء وعند الشدائد والأوبئة والجوائح التضرع إلى الله تعالى والفقر واللجوء إليه والاحتماء به؛ إذ التضرع حالة أعظم من اللجوء للدعاء، فهي تحمل معنى الضعف والذل بين يدي الله تعالى، وتحمل معنى التقرب والتوسل والإلحاح والمبالغة في السؤال والرغبة.



ذلك بأن الشدائد التي تنزل بالناس تنبههم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن الفرار يكون من الله إلى الله، وأن حاجة الناس جميعا في هذه اللحظة الفاصلة التي نفدت فيها كل الحيل، واستنفدت فيها كل الإمكانات هو اللجوء إلى الله تعالى.

عَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤمنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا

لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». [رواه مسلم]. فالمؤمن حق الإيمان يعلم أن ربه لا يفعل إلا خيرا، وأن أمره كله له خير وأن الله تعالى يريد ويحب ويدبر له الخير.. فإن أصابه بسط ورخاء شكر ربه، وإن أصابته ضراء أي بلية ومصيبة صبر على ذلك ورضي بقضاء الله وقدره، ولازم باب الله تعالى بالدعاء واتخاذ الأسباب.

وعلاوة على ذلك، فقد بيَّن وبأء كورونا حجم الإنسان ووهنه وضعفه أمام قدرة الله تعالى وعظمته، حيث عجزت جيوش العالم بأسره وتكنولوجيته الحديثة وأسلحته المتطورة وصواريخه العابرة للقارة عن مواجهة مخلوق صغير لا يرى بالعين المجردة.. (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا).

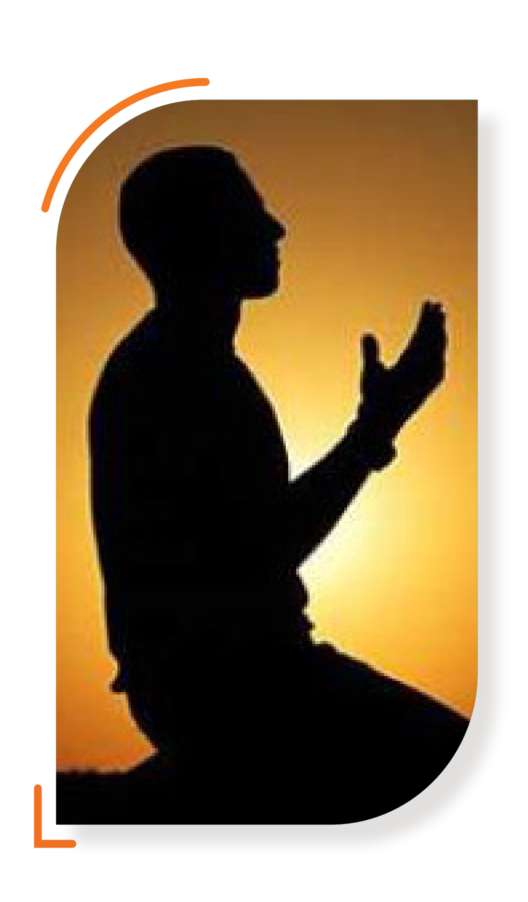
وتسبب وباء "كورونا" (كوفيد ١٩) للعالم كله بالذعر والهلع والفوضى، وأدى إلى اضطراب الحياة اليومية لملايين الناس، كما تسبب في تراجع مؤشرات الاقتصاد العالمي، وإلغاء جميع الأسفار الدولية، ووقف حركة التنقل بين الدول بل حتى بين المدن في الدولة الواحدة، فضلا عن إلغاء عشرات المؤتمرات والملتقيات والفعاليات السياسية والرياضية والثقافية والفكرية وغيرها.

"ومن ثم فإن التحلي بالقيم الإيمانية يحقق للإنسان المناعة النفسية والأمن الروحي، وذلك من خلال تعميق الشعور العقدي الذي يقوم على الإيمان بالقضاء والقدر، وحسن الظن بالله، والصبر على البلاء، حيث يرجع الإنسان إلى ربه بالتوبة والاستغفار والدعاء ليصرف عنه وعن أمته الوباء، ويحميه من البلاء.."

وقد أدركت جميع الشعوب أهمية قيم الإيمان في وقت الشدائد واللجوء إلى الله تعالى، ومن الغرائب أن نجد بعض زعماء الغرب يدعون الناس إلى اللجوء إلى الله تعالى لرفع البلاء، ونجد عكس هذا عند بعض الغربان العمياء من علمانيي العرب.

فهذا ترمب رغم دجله دعا شعبه إلى تخصيص يوم للصلاة من أجل رفع البلاء.

وصرح رئيس وزراء إيطاليا أن "حلول الأرض انتهت والأمـر متروك للسماء"اهـ.



"وهذا الزعيم الروحي للطائفة الأيزيدية في العراق لـ"حفريات"؛ يحث أتباعه على الدعاء ويقول: "لنبتهل إلى رب العالمين أن ينجّي الجميع من هذا الوباء، وندعو أبناء الديانة الأيزيدية إلى الدعاء بنجاح محاولات الأطباء والعلماء لإيجاد علاج لهذا الفيروس، ونبتهل إلى الله أن تنجح جهود المؤسسات ذات العلاقة والعلماء، إلى نجاح جهودهم في إيجاد العلاج، والمواطنين إلى الصبر والتكاتف ومساندة بعضهم البعض، ونثمن في الوقت نفسه جهود الخيّرين، الذين يخففون أعباء الحياة على الفقراء في هذه الأزمة"."

وهذا القس إكرام لمعي الأستاذ بكلية اللاهوت الإنجيلية لـ"حفريات"؛ يقول: "ندعو أتباع جميع الأديان والمذاهب والطوائف أن يقفوا معًا أمام الله، سائلين أن يرفع عنا الوباء، بأن يرشد العلماء في معاملهم الذين يصلون الليل بالنهار للوصول إلى العلاج الناجح لوباء الكورونا"اهـ.

ويقول وزير الأوقاف الأردني محمد الخلايلة في إحدى خطبه للجمعة ١٠ أبريل ٢٠٢٠ : "نحتاج إلى الصبر ليكون جزءا لا يتجزأ من إيماننا بالله تعالى، إذ المسلم في كل أحواله مأجور، وهنا يظهر صبر الرجال بأن يصبر على الحظر في المنزل، ويبتعد عن الكماليات، ويتجنب الأضرار بالغير بقصد أو بغير قصد"اهـ.

وغيرها من المواقف والتصريحات التي تدعو إلى التوجه إلى الله تعالى.

فالجميع إذن يقر أن التوجه إلى الله تعالى هو الحل الوحيد للخروج من الأزمة واكتساب المناعة تجاه الأوبئة والجوائح.

فالقيم الإيمانية إذن (التوبة، الدعاء، الصلاة، الصبر على البلاء...) تحقق المناعة النفسية والصحية للناس، وتدفع عنهم الأمراض النفسية وعقدها ومعاناتها، وتجعلهم في طمأنينة وسكينة ورضا بقضاء الله وقدره.

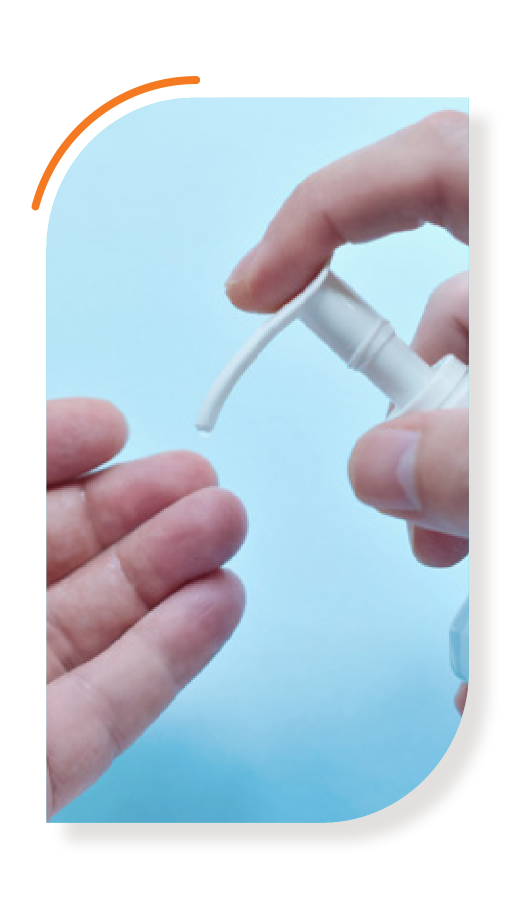
ومن لوازم الإيمان كذلك اتخاذ الأسباب اللازمة لمواجه الأقدار (الأوبئة والجوائح) بأقدار أخرى (العلم) وذلك باتخاذ الإجراءات اللازمة، والأخذ بالأسباب الصحية والوقائية من الأوبئة..

ذلك بأن السعي الحثيث للبحث عن الدواء لكل داء، وإدراك ما جعله الله شفاء للناس، هو من لوازم الإيمان؛ ذلك الإيمان الذي لا يفصل بين مراكز البحث ومختبرات العلم والدعاء والتذلل لله تعالى؛ لأن الغفلة عن باب الله وتركه مهلكة، وعدم السعي لمواجهة الأوبئة بالأسباب المناسبة هو مهلكة أيضا.

من أجل ذلك لم يغفل الجيل الأول عن الأخذ بأسباب النجاة من الأوبئة بموازاة مع إيمانهم وتوكلهم ورضاهم بالقضاء والقدر: فقد خطب عمرو بن العاص الناس بالشام، لما حل بها الوباء، وقال لهم: (أيُّها الناس! إنَّ هذا الوجع إذا وقع إِنما يشتعل اشتعال النَّار، فتجنَّبوا منه في الجبال)، فخرج، وخرج النّاس، فتفرقوا حتّى رفعه الله عنهم، فبلغ عمر ما فعله عمرو، فما كرهه.[١]

(١) تاريخ الطبري، ٢/٤٨٨.

إنه توجيه مهم ينطبق على الحجر الصحي في زماننا هذا، حيث تنصح الجهات الصحية المصابين بأن يتفرقوا عن بعضهم ولا يتجمعوا، حتى تقل من نسبة انتقال العدوى بينهم.. ومن ثم فإن مخالفة هذه التوجيهات تؤدي بالإنسان إلى التهلكة، والله تعالى يقول: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (البقرة:١٩٥)، كما أن مخالفة الإجراءات الصحيحة ستؤدي إلى تدمير المناعة النفسية والصحية والاجتماعية للناس.



ومما يذكر هنا النصائح الصحية التي نصح بها الطبيب المغربي الشيخ أبو الحسن علي بن عبدالله بن هيدور التازي (ت: ٨١٦ هـ/١٤١٣ م) بيّن في كتابه النفيس الموسوم بـ:"المسألة الحكمية في الأمراض الوبائية"، الإنسان ليحمي نفسه من الوباء، ومنها بأن يدبر "الهواء الذي يتنفس به، إذ لا يمكنه تبديله ولا مندوحة عنه لسواه، إذ هو مادة حياته فيجب عليه إذ ذاك إصلاح جواهر الهواء من اتخاذ البيوت العالية ورشها بالرياحين وبماء الـورد الممزوج بالخل، والتطيب به ومسح الوجه والأطراف والمواظبة"اهـ.

وهذا الخطاب كأنه لزماننا هذا، فمثل الإجراءات الصحية (كالنظافة وغسل اليدين وتعقيم الهواء والأماكن والشوارع وغير ذلك...) هي التي تنصح بها الهيئات الصحية اليوم..

ومن خلال ما سبق، فقد أكدت جائحة كورونا أنّ الإيمان القائم على المعرفة والعلم، وتدبر أقدار الله واتخاذ الأسباب اللازمة، سيمضي بنا نحو خلاص حقيقي وتجاوز الآثار السلبية الناجمة عن الأوبئة والجوائح.

عن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا» [٢].

" إنه تصوير نبوي محكم للمجتمع الذي تسود فيه قيم التعاون والتكافل والتعاطف والرحمة ونكران الذات والوحدة الاجتماعية، حيث تنجو سفينته من الغرق والهلاك.. والمجتمع الذي تسود فيه الأنانية وتغيب فيه القيم، وينتشر فيه المنكر، حيث ستنتهي سفينته بالغرق والهلاك.. "

كما يوجه الحديث النبوي الشريف إلى المصير المشترك لسفينة المجتمع، وإلى المسؤولية المشتركة الملقاة على عاتق جميع الناس في المجتمع الواحد، والوطن الواحد.. فالجميع في سفينة واحدة يواجهون خطرا واحدا لا يفرق بين غني وفقير، وحاكم ومحكوم، وكبير وصغير، ورجل وامرأة، وعالم وأميٍّ، ومن ثم فإن أي خطأ يصدر من أي راكب على متن سفينة المجتمع في ظل هذه الظروف الحرجة سيضر بالجميع..

ومن ثم فإن اكتساب المناعة الاجتماعية والنجاة من الغرق يكون بالتطبيق الصارم للإجراءات الاحترازية والوقائية والصحية الصادرة عن الجهات الرسمية والصحية تحقيقا لسلامة جميع ركاب السفينة، ومن ذلك عدم خرق حالة الطوارئ الصحية، والالتزام بالعزل المنزلي والحجر الصحي والتباعد الاجتماعي وارتداء الكمامات الوقائية والالتزام بالنظافة الشخصية، والأمل والإيجابية، ونشر التفاؤل، وكل ما يساعد على رفع المناعة الاجتماعية...

---

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح٢٣٦١.

عن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [صحيح مسلم].

> إنها دعـوة إلـى مـواسـاة الآخرين والإحساس بهم، والتضامن معهم، في أوقات الأزمات والشدائد.



عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا رسول الله ! أيُّ الناس أحبُّ إلى الله ؟ فقال : أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحبُّ إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة شهرا...) [رواه الطبراني في الأوسط والصغير].

وعـن أبـي هـريـرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدنيا، نفَّس الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[صحيح مسلم].

قال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: "هذا حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسر؛ من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، أو غير ذلك" [شرح الأربعين لابن دقيق العيد، ١٠٨].

إنَّ الكُرَبَ هي الشَّدائد العظيمة، والناس اليوم يعانون من هذه الشدة مع هذا الوباء المستجد، لذلك نحتاج إلى استحضار هذه الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى التكافل والتضامن بين الناس، من أجل مواجهة هذه الشدائد والجوائح، وحماية المجتمعات من آثارها السلبية، وتحقيق مناعة اجتماعية على كافة الصعد.

فمن أعان الناس وسعى في قضاء حوائجهم سخر الله له من يقوم بشؤونه؛ وذلك لأن الله تولى شأنه.

" إن هذا الوقت العصيب الذي يمر به العالم يحتاج منا إلى التنزيل العملي لقيمنا الأصيلة التي جاء ديننا الحنيف في الواقع. وعلى قائمة تلك القيم التكافل والتضامن والتعاون؛ ولنبدأ بالأقارب فكم من غني له أقارب يتضورون جوعًا وفقرًا، وكذلك الجيران فهم أولى بالمعروف من غيرهم، ثم باقي الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل. "

وهكذا فالقيم الاجتماعية تسهم في تحقيق المناعة الاجتماعية إزاء الآثار السلبية الناجمة عن هذا الوباء.

٣ القيم الإنسانية:

يقول الله تبارك وتعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)[المائدة:٢]. ويقول جل وعلا: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٩)[الإنسان].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير الناس أنفعهم للناس) [رواه الطبراني في الأوسط].

إن القيم الإنسانية هي الطريق الذي يخرج الإنسان ظلمات الشدائد والأوبئة والجوائح، إذ إن التحلي بالقيم الإنسانية وتفعيلها في حياة الناس يسهم في تحقيق السلام العالمي، والأمن الاجتماعي، والوحدة الإنسانية بين الآدميين بمختلف أطيافهم ومللهم ونحلهم.

وتأسيسا عليه؛ فإن هذا الفترة الحالية التي يواجه فيها العالم بأسره وباء كورونا فرصة لانهزام قيم الفردانية وإحياء القيم الإنسانية.. وفرصة للتعاون بين البشرية جمعاء على أعمال الخير والبر، والوقوف في وجه الاستغلال والطمع والجشع.. لكن للأسف فضحت القيم الوجه القبيح للكثير من زعماء الغرب ومثقفيه، حيث نجد عددا من المسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس "ترمب" اقترحوا إعطاء الأولوية للشباب في مقاومة كورونا فيروس على حساب المسنين، وإعطاء الأولية للاقتصاد والحفاظ على فرص الشغل على حساب صحة المواطنين..

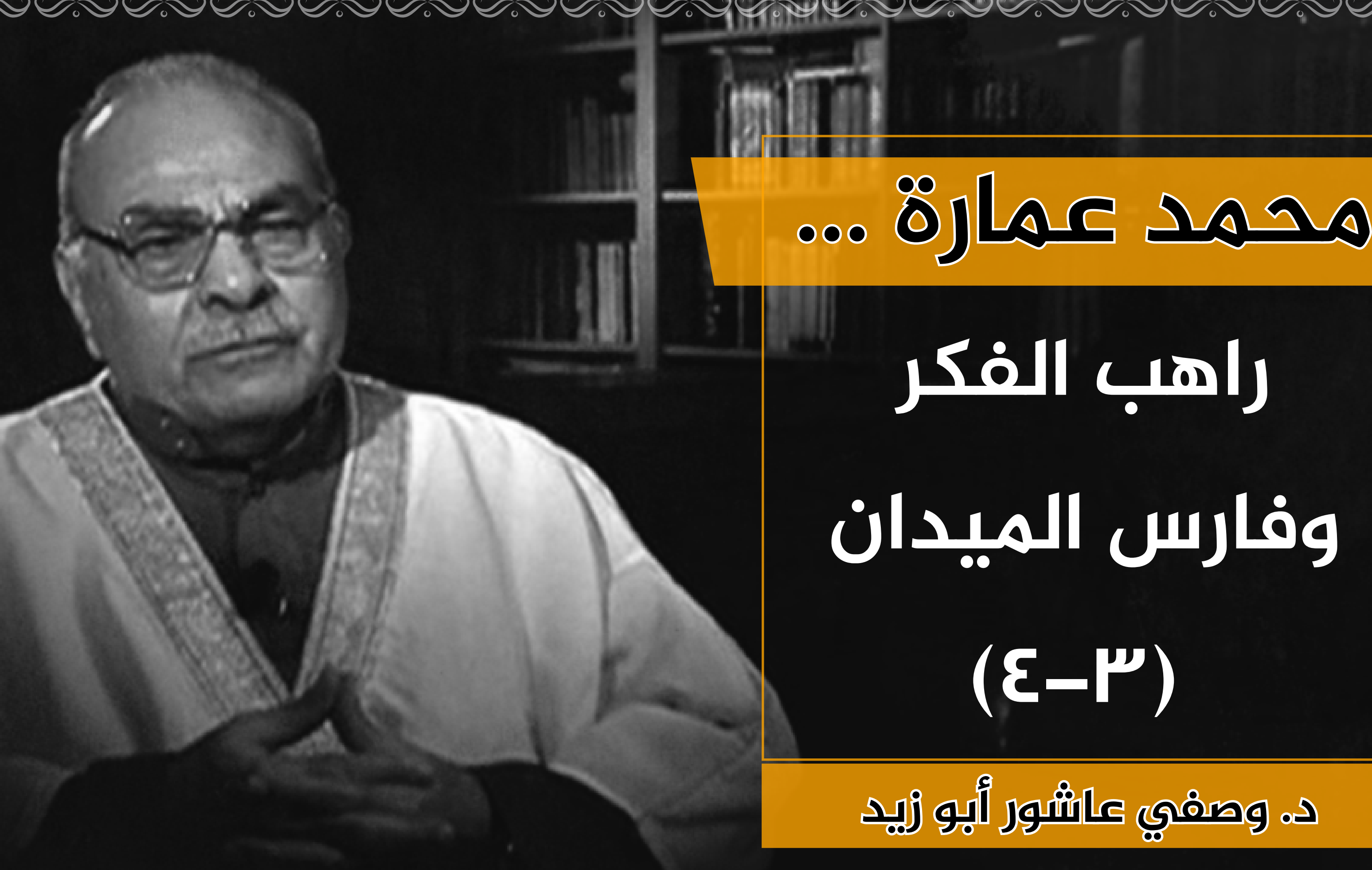
وكذلك فيما وقع مع إيطاليا حيث قررت بعض الدول الأوربية عزلها بدل مساعدتها ولو بالكمامات الواقية.. مما دفعها وشعبها إلى توجيه انتقادات لاذعة لدول الاتحاد..

" وعلاوة على ذلك فقد اعتبر الطبيب جون بول ميرا، في تصريح لقناة "ICL" الفرنسية، القارة الإفريقية حقل تجارب لاكتشاف لقاحات لكورونا، في إجابته على سؤال عن "إمكانية تجريب اللقاح في إفريقيا على غرار تجارب سابقة".. وهذا يعبر عن الوجه الاستعماري القبيح لهؤلاء الذين رفعوا شعارات إنسانية جوفاء منذ عقود.. "

في حين نجد الكثير من الدول المسلمة سارعت إلى تقديم المساعدات لبعض الدول الأوروبية والأمريكية وغيرها، انطلاقا من القيم الإنسانية التي لا تفرق بين بلد وبلد، ودين ودين، وجنس وآخر.

وتأسيسا عليه، فإن هذه الظرفية الحرجة التي تمر بها مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن أن نتجاوزها خارج دائرة القيم، ولا يمكن أن نخرج من دهليزها بالأنانية والجشع والهلع ونشر الإشاعات.. وإنما بالقيم نتخطى الصعاب ونقتحم العقبات ونواجه هذه الجائحة حتى ترتفع بإذن الله.

اللهم اصرف هذا الوباء عن الإنسانية جمعاء.



محمد عمارة ...

راهب الفكر وفارس الميدان (٣-٤)

د. وصفي عاشور أبو زيد

في الحلقة الأولى من هذه الدراسة تحدثنا عن قيمة الراحل الكبير د. محمد عمارة الفكرية والاجتهادية، واستعرضنا المسيرة التعليمية له باختصار، وذكرنا مشايخه ومكتبة حازها فيها أربعة آلاف كتاب في وقت مبكر من حياته قرأها كلها، وطبيعة عمله الوظيفي الذي مكنه من إنجاز سلاسل الأعمال الكاملة، وتأثره بعدد من العمالقة منهم: العقاد والغزالي .. ثم تناولنا في الحلقة الثانية معالم مشروعه الفكري ببيان معنى "المشروع الفكري" كما ذكره هو، وذكر معالم هذا المشروع التي تمثلت في: أولا: بيان حقيقة فكرة الإسلام.

ثانيا: رصد الواقع وتلبية حاجاته. ثالثا: التصدي للتحديات التي تواجه الإسلام. رابعا: الرد على الشبهات. خامسا: الكتابة عن الأعلام ... وذكرنا أن هذه الجوانب يحتاج كل مَعْلم منها إلى دراسة مستقلة بل دراسات تبين منهجه فيها، وعطاءه الذي أعطاه، والجهد الذي بذله، واستمداد كل محور من هذه المحاور، وامتداداتها وآثارها في الفكر والواقع والحياة، وبيان المآخذ التي تؤخذ على كل جانب سواء أكانت هذه المآخذ نواقصَ تحتاج لتكميل، أم أخطاء تحتاج لتصحيح، أم غوامض تحتاج لتوضيح، وهو بشر ليس معصوما، ويؤخذ من كلامه ويرد عليه.

وفي هذه الحلقة الثالثة نواصل الحديث عن فقيدنا الكبير مع المعالم العشرة التي نرى أنها السر الذي ميَّزَ المشروع الفكري للدكتور محمد عمارة، وجعلته بهذا الحجم الكبير، وهذا التنوع الثري، وهذا التعدد في الثغور التي رابط عليها والمعارك التي خاضها.

المعالم العشرة لتميز المشروع الفكري لعمارة

انعقدت للدكتور محمد عمارة ميزاتٌ عظيمة ربما من النادر أن تجتمع في عالم أو مفكر خلعت على مجمل مشروعه ما يمكن تسميته بـ "التميز" و"الفرادة" و"التأثير"، وذلك في عصره على الأقل، بما جعله قلعة من قلاع الفكر الإسلامي الحارسة لتعاليم الإسلام والمرابِطة على ثغوره في عصره على حد وصف شيخنا الإمام يوسف القرضاوي الذي كتب عنه كتابا سماه: "الدكتور محمد عمارة، الحارس اليقظ المرابط على ثغور الإسلام"، وكما أسماه الشيخ المفكر العظيم محمد الغزالي في إهدائه كتاب: "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم"، كتب فيه: "إلى أخي الحبيب د. محمد عمارة داعية الإسلام وحارس تعاليمه، مع الدعاء".

" وهذه الميزات تمثل جمعه بين أمور كثيرة ومن زوايا متعددة، وثقافات متنوعة، وهذا الجمع قد يكون بين أشياء متكاملة، أو متنوعة، أو متناقضة ومتعارضة في بعض الأحيان؛ حيث إن جمع المفكر بين أكثر من ثقافة - في تقديري هو الذي يعطي لفكره قوة وإبداعا، ويمده بالتجديد ويمنحه القدرة على الاجتهاد، ويوفر له عمق المدارك، ويهيئ له سعة الأفق، وهذا لا يتوفر فيمن عكف على مجال واحد أو تخصص واحد أو ثقافة واحدة. "

وفي السطور الآتية نرصد هذه الأمور التي جمعها د. عمارة، وانعكست على مشروعه على النحو الآتي:

أولا: الجمع بين دراسة الفكر الإسلامي ودراسة الفكر الغربي:

في دراسته واهتمامه جمع عمارة بين دراسة الفكر الإسلامي ودراسة الفكر الغربي؛ حيث درس الفكر الإسلامي من خلال تخصصه في الفلسفة الإسلامية والفرق الإسلامية والتيارات الإسلامية، وكذلك من دراسته في الأزهـر، كما اهتم بالفكر الغربي بحكم اشتغاله بالفكر عموما، وطالع مشروعاتهم ومخططاتهم بحكم اهتمامه بالإسلام والتحديات التي تواجهه من الغرب والشرق، وأصدر في ذلك عددا من الكتب تدل بعنواناتها فقط على هذا الجمع والمقارنة، منها: الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكانى، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، الغارة الجديدة على الإسـلام، العلمانية بين الغرب والإسـلام، مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبـا، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، الإسلام والغرب افتراءات لها تاريخ، الحضارات العالمية تدافع أم صراع، الإسلام في عيون غربية بين افتراءات الجهلاء وإنصاف العلماء.



وهذا الجمع بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي منح عمارة تمايزا وتميزا في طرحه، واستطاع من خلاله أن يبين ميزات وامتيازات الفكر الإسلامي على الفكر الغربي، بل يجلب من آراء وشهادات الغربيين ما يعد انتصارا للإسلام، ومن ذلك

مثلا أنه جمع في كتابه: "الإسلام في عيون غربية " اثنتين وثلاثين شهادة لغربيين غير مسلمين ينصفون فيها الإسلام، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

ونَذيمُهُم وبِهِم عَرفْنا فَضْلَهُ ** وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشْـــياءُ

وقال دوقلة المنبجي من قصيدته: "اليتيمة":

ضِدانِ لما استُجْمِعا حَسُنا ** والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْـنَهُ الضِّدُّ

وقد ظهر ذلك الحسنُ جليًّا في القضايا والأفكار التي قارن فيها بين رؤية الفكر الإسلامي ورؤية الفكر الغربي، ففي المرأة مثلا يبين كيف تناول الفكر الغربي المرأة وعرضها على أنها سلعة وشيء، في حين أن الإسلام يرى المرأة إنسانا مكرما مشرفا له حياؤه وخصوصيته، ولا يمنعه من ممارسة الحياة العامة ونفع البشرية وفق الضوابط الشرعية التي تحفظه وتصونه بما يحقق الالتزام ويجمع إليه الفعل الحضاري الراشد للأمة .. وهكذا في كل القضايا التي يتناولها تُظهر المقارنةُ فيها حسنَ الإسلام وامتيازَه وتميزه على الفكر الغربي.

ثانيا: الجمع بين علوم النقل وعلوم العقل:

ومن معالم تميز المشروع الفكري للعلامة د. عمارة أنه جمع بين معرفة علوم النقل، ومعرفة علوم العقل، وقد توفر له ذلك من دراسته للعلوم الشرعية في الأزهر ودار العلوم فحاز علوم النقل، ومن تخصصه في الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي بدراسة الفرق الإسلامية فحاز علوم العقل.

ولقد كتب د. عمارة عن علوم القرآن وعلوم السنة، وعلوم الفقه والاجتهاد بما مثل رؤية له في النظر إلى هذه العلوم تستحق الفحص والدراسة، كما أن الشبهات التي أوردها وقدم ردودا شافية عليها يتجلى فيها العلم بالنقل وفهمه وفق رؤية "عقلانية مؤمنة" كما كان يسميها، ووفق منهجية "وسطية جامعة" كما كان يصفها.

كذلك كتب في الفرق الإسلامية وحاز رسالتيه للماجستير والدكتوراه عن المعتزلة وفكرها ورؤيتها في الحرية والسياسة والخلافة؛ فضلا عن تشبعه في قسم الفلسفة بدار العلوم من علوم العقل، وهو الذي كتب كتاب: "مقام العقل في الإسلام"، وتحدث عن "العقلانية المؤمنة"، و"الوسطية الجامعة" كما سبقت الإشارة، وقرأ الشرع بالعقل وحكم العقل بالشرع، في مجمل ما كتب، وقد تختلف معه في بعض القراءات والاجتهادات لكنك لا تنكر جسارته وجرأته في نقاش القضايا وممارسة الاجتهاد، وكيف كان سيفا مسلطا على التيارات المعادية للإسلام والذب عن حماه.



وقد تجلت آثار هذا العلم العقلي "الراشد" عنده في تمكنه من تقديم قراءة راشدة للنقل، مرتبطة بالأصل وموصولة بالعصر وملبية لحاجات الواقع وهموم الأمة وقضايا الإسلام، واستطاع أن يدحض القراءات المختلفة للإسلام: ماركسيةً وعلمانية وشيوعية ورأسمالية، وغربية، وأن يضعها تحت مجهر الإسلام والعقلنة المؤمنة، ويفندها تفنيدا تاما لا يرفع عنها المجهر إلا بعد أن يتركها كأنها أعجاز نخل خاوية.

ثالثا: الجمع بين دراسة الإسلام ودراسة الأديان الأخرى:

من المعالم التي ميزت المشروع الفكري للدكتور عمارة أنه جمع إلى المعرفة بالإسلام وعلومه أصولا وفروعا، منقولا ومعقولا، ممارسا للاجتهاد غير

مخلد للتقليد ولا التعصب لأحد .. جمع إلى ذلك الاطلاع الواسع على "الأديان" الأخرى، ومقارنة كثير من القضايا التي يتناولها بين رؤية الإسلام لها ورؤية الأديان الأخرى، وبخاصة اليهودية والنصرانية.

وقد صنف د. عمارة عددا من الكتب تبرز هذا الجمع بين الثقافتين، ومن ذلك: علمانية المدفع والإنجيل، مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا، القدس بين اليهودية والإسلام.

وتظهر فوائد هذا الجمع حين يتناول قضايا فكرية وتشريعية؛ فهو حين يتحدث عن المرأة أو النفس البشرية أو قيمة الإنسان أو الزواج والطلاق أو الحرية في ظل عبودية الله، كل هذه القضايا وغيرها حين يتناولها يذكر رؤية الإسلام الفريدة والجامعة لها، والرؤى الأخرى في الأديان الأخرى.

"وإذا تحدث عن "الإسلام والآخر" كما هو أحد عنوانات كتبه يبين عظمة الإسلام في قبوله بالتعايش مع الآخر وعيش الآخر في ظله، مع بيانه لضيق الأديان والمذاهب الأخرى ذرعًا بالآخر: رفضا وعنصرية وإبعادا، بل يصل الأمر إلى القتل والسحق والإقصاء."

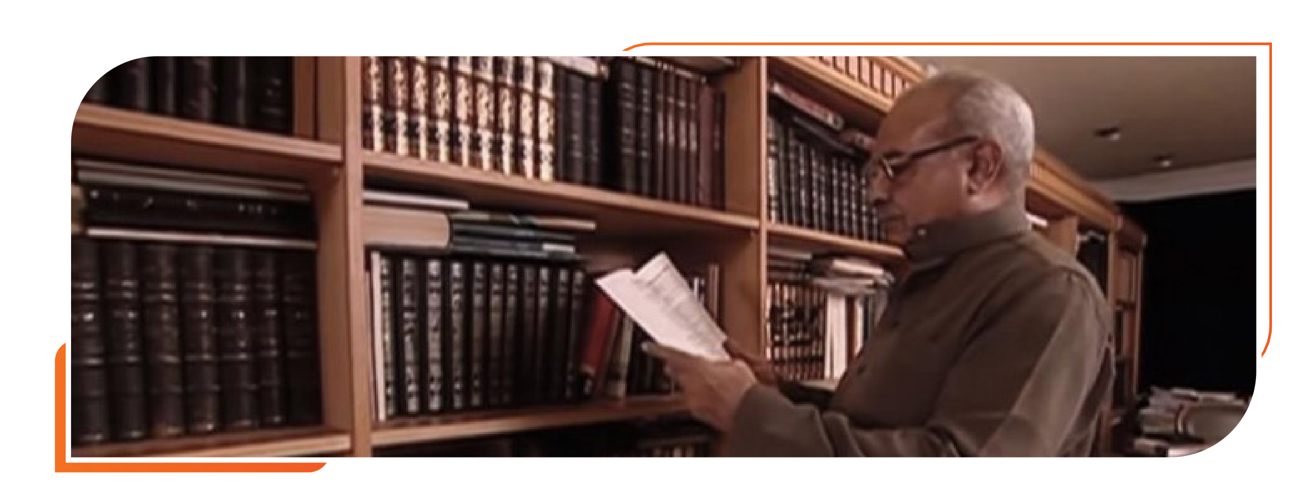
وهكذا يجلي عمارة عظمة الإسلام حين يقارنه بالأديان والمذاهب والرسالات والقوانين الأخرى، وهو ما يمثل أحد ركائز الدعوة لدين الإسلام في الشرق والغرب، قديما وحديثا.

رابعا: الجمع بين الدراسة في الأزهر والدراسة في دار العلوم:

ومن المعالم التي ميزت مشروع عمارة الفكري، ومنحته أبعادا جديدة متجددة، وأعطته آفاقا أوسع في التعامل الواقعي والحيوي مع الواقع وقضايا الأمة أنه درَسَ في الأزهر الشريف بما يُدرَّس فيه من متون شرعية، وبين دراسة دار العلوم الأكثر حيوية وقدرة على تكوين الدارس فيها على الاجتهاد

والتجديد والواقعية والفاعلية، وهذه ميزة يدركها كل من درس في المعهدين العريقين أو حتى درس في دار العلوم وحدها.

كما أن الدراسة في دار العلوم خاصةً تعطي العقل مزيدا من الانفتاح، وتجعله مشرفًا على ثقافات متنوعة: شرعية وتاريخية وفلسفية ولغوية ونحوية وبلاغية وأدبية ونقدية، يضاف لهذا أن د. عمارة كانت له اطلاعات واسعة على الأدب واللغة في وقت مبكر من حياته - كما ستأتي الإشارة - مما منحه ما يمنحه التمكنُ من اللغة وآدابها، وهو ما انعكس على القضايا التي يتناولها في الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين المثالية والواقعية.



وقد أشار د. عمارة في بعض لقاءاته التلفزيونية مع د. جاسم الموطوع إلى مدى تأثره بدراسته في دار العلوم، وانعكاس هذه الدراسة على تفاعله مع الواقع وقدراته على الاجتهاد والتجديد، كما ظهر في كثير من عنوانات كتبه عن التجديد والاجتهاد، وكذلك مقالاته وأحاديثه الفضائية والإذاعية.

خامسا: الجمع بين دراسة المذاهب الكلامية القديمة والتيارات الفكرية المعاصرة:

استطاع د. عمارة أن يدرس المذاهب الكلامية القديمة بحكم دراسته في قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بالقاهرة، واطلاعه الواسع على الفلسفة القديمة والمشائية والفكر الإسلامي المعاصر، وتخصصه في الماجستير والدكتوراه في المعتزلة عن الحرية عندهم، والحكم والسياسة في فكرهم،

وجمع مع هذا دراسة التيارات الفكرية والمذاهب المعاصرة، بل عاش معهم وانتمى لهم بعضا من الزمان، وقد ساعده على هذا الانتماء كما يحكي هو حبه للحرية وتعلقه بقضية العدالة الاجتماعية والمقاومة والثورة، ولم يكن انتماؤه لها عن عقيدة أو أيديولوجيا تخالف الإسلام، ثم حين تعمق في دراسة الإسلام وجد فيه هذا وأكثر بصورة أرقى وأعدل وأعمق وأشمل مما ترتب عليه تركه لهذه التيارات.

"وقد كتب عمارة بعض كتبه تشير إلى هذا الجمع، وإلى وعيه الدقيق بمذاهب الفكر المعاصر، ومن ذلك: العلمانية، سقوط الغلو العلماني، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، التفسير الماركسي للإسلام، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، وغير ذلك من كتب."

والميزة هنا أن وعيه بالفرق القديمة وتياراتها في الفكر الإسلامي وتراثه العقلي العظيم قد منحه القدرة على تخريج المذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة عليها، ومعرفة مداخلها ومساربها ودهاليزها وشبهاتها وأفكارها ومنطلقاتها ومرتكزاتها؛ فضلا عن خبرته العميقة ومعرفته الدقيقة بالتيارات المعاصرة مثل الاشتراكية والماركسية والعلمانية من خلال دراسته لها وانتمائه لبعضها وقتا من الزمان، وهو الأمر الذي ساعده في هدم هذه الأفكار ودمغ مفكريها وكشف عوارهم والرد على شبهاتهم وأفكارهم بالحجة القاطعة والبراهين الساطعة التي كان يلجمهم بها إلجاما، وهذا ما جعل عمارة فارسا في المناظرة والحوار، وهو ما شهدته الساحة له وعرفته عنه في مسيرته الفكرية والدعوية والحضارية.

(كان من المؤمَّل أن يُغطِّي مقالٌ واحد الأسرار أو المعالم العشرة لتميز مشروع عمارة، ولكن مساحة المقال اتسعت لنصف هذه المعالم فقط، وفي الحلقة الرابعة نكمل الخمسة الباقية بإّن الله تعالى، ونخصص حلقة أخيرة للحديث عن معالم الفروسية لدى د. عمارة الفكري، في المعارك الفكرية والميادين العملية ونورد معها مصادر الدراسة).

دروس الهيبة

د. عطية عدلان

الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

ليس بالقدوة وحدها ولا بالقوة وحدها يتحقق للإسلام الظهور وللمسلمين النصر والتمكين، لا يتحقق ظهور ولا نصر ولا تمكين إلا باجتماع القدوة والقوة؛ فبالقوة تفتح البلاد وبالقدوة تفتح قلوب العباد، وبدون هذين الفتحين لا يتحقق المراد، هذا بُعد من أبعاد المسألة سهل الإدراك، وثَم بُعد آخر جدير بالتأمل وهو كذلك لا يُدرك إلا بنوع من التأمل.



وهو أنه باجتماع القدوة والقوة تتحقق الهيبة، تلك التي نستدعي لها في مقالنا هذا الدلائل والشواهد والأمثلة والعوائد؛ بغرض استلهام دروسها، واستنبات غراسها، وإنها (أي الهيبة) لجديرة بالاهتمام والاحتفاء، وإننا (أي أمة الإسلام) لنجفل عنها كما تجفل من الأسد الظباء!!

وليست الهيبة مرادفة للرهبة كما قد يتصورها من لا ذوق لهم ولا معرفة؛ لأنه قد توجد الرهبة ولا توجد الهيبة، والصحيح الذي تنضبط به الصورة هو أن الرهبة الخالصة من شوائب الغشم والعدوان والبغي مكون من مكوناتها، ينضاف إليه مكونات أخرى أبرزها الفضل والمنة، وباجتماع الرهبة المستمدة من القوة والمنة المستمدة من القدوة تتحقق الهيبة؛ لذلك اشترطوا في مؤسسة أهل الحل والعقد شرطين أساسيين: الشوكة والمنة.



> والمعنى المقابل للهيبة (شرعاً لا وضعاً) هو الوهن؛ لذلك فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث بأنه: (حب الدنيا وكراهية الموت) وذلك بعد أن وضعه في مقابل الهيبة في قوله: (ينزع الله المهابة من قلوب أعدائكم ويلقي في قلوبكم الوهن)؛ فحب الدنيا يفقد المسلمين القدوة، وكراهية الموت يفقدهم القوة؛ وبفقدانهما تزول الهيبة ويحل الوهن الذي هو شيء أكبر من الضعف.

ولا ريب أن الأمة الإسلامية في عهدها الأول تحققت لها هذه الهيبة، وكانت سمتاً ظاهراً لها، وسمة بارزة من سماتها؛ مما حدا بكثير من البلدان إلى الدخول في الإسلام دون حاجة إلى فتح، فيقال فتحت بالقرآن لا بالسنان، والحقيقة أن البلاد لا تفتح بالقرآن وإنما تفتح البلاد بالهيبة ثم تفتح قلوب

العباد بالدعوة، وكلاهما من أثر القرآن، ومن هدايات القرآن، ولا يشترط لتحقق أثر الهيبة إمضاء الجهاد في كل البقاع واستغراقه لجميع الأصقاع؛ لأن مدها يسبق خطوها وريحها يمتد من حولها.

وفي حياتنا المعاصرة درسان بارزان من دروس الهيبة، الأول في مصر؛ حيث لم يكن للثورة رغم جلالها وزخمها، ولا للدولة التي أوجدتها الثورة رغم عمق شرعيتها، لم يكن لهذه ولا تلك الهيبة المطلوبة كشرط لازم للنجاح والبقاء ومقوم ثابت للاستقرار والاستمرار؛ لأنهما (أي الثورة والدولة) افتقدا الشوكة، ولم تكتمل بهما المنة، فجميع الأجهزة التي تعد من أدوات السلطة الخشنة كالجيش والشرطة والمخابرات وغيرها لم يكن للثورة ولا للدولة نصيب منها؛ لأنها حكر على النظام، أعني النظام الذي قامت عليه الثورة ولم يسقط بقيامها ولا بقيام الدولة التي أوجدتها الثورة، ولم تمتلك الثورة ولا الدولة بديلاً عن تلك الأجهزة العميلة الدخيلة.

وأما المنة فلم تتم ولم تكتمل، وما تحقق منها لم يجد من ينشره ويظهره؛ فسهل طمسه وتشويهه، ثم جحده وشيطنته، هذا مع كون المنة كانت ضعيفة عرجاء وهزيلة عضباء؛ حيث امتطى ظهر الثورة وصوليون عرجوا بها بعد الأيام الأولى الصافية إلى منعرجات ومنعطفات لا تخلو من دخن، وحيث لم يكن الأداء في الدولة رغم سلامة مقاصد القائمين بها على النحو الذي يوافق منهج القرآن في تلك المرحلة؛ فانتفت القدوة مع انتفاء القوة؛ فأنى توجد الهيبة؟ وكيف يكون للناس من الهلاك خلاص؟



وأما الدرس الثاني من دروس الهيبة فقد رآه المسلمون (أعني الشعوب المسلمة) في تحرك تركيا ولاسيما في الفترة الاخيرة؛ فمن المواقف القوية تجاه قضية فلسطين والقدس وصفقة القرن، إلى التدخل في الخليج بما يردع الجناة المتآمرين المحاصرين لقطر ظلماً وعدواناً، إلى التدخل في شمال العراق وشمال سوريا؛ بما يؤمن أمن البلاد ويسحب شريط الحدود الجيوسياسية إلى مدى يكفي بنسبة كبيرة لتحقيق الأمن للأصل، إلى شرق المتوسط وبسط السيادة على جزء كبير يعد حقاً جغرافياً وتاريخياً للأتراك، ثم في الاخير يأتي التدخل المشروع في ليبيا، ذلك التدخل الذي أربك حسابات الثورة المضادة.



أنهما درسان متقابلان؛ فهما شديدا الحضور والأهمية.

فهل نستطيع أن نستلهم هذين الدرسين؛ لنكتب مشروعنا ونمضي في تنفيذه متوكلين على رب العالمين؟

دعوة للحوار

”حتى لا تكون فتنة“

د. مجدي شلش



لفظ الفتنة إذا نسب لله كان بمعنى الابتلاء والاختبار، وليس بالضرورة أن يكون بالشر، فالفتنة كما تكون منه بالشر تكون بالخير، كما قال سبحانه: ”ونبلوكم بالشر والخير فتنة“، وأما إن كان من الإنسان فهو بمعنى الإثم والشرك والكفر والضلال والحيرة والبلبلة والاضطراب، وشواهد ذلك في القرآن الكريم لا تخفى على القارئ المبتدئ.

المقال ينحو للمعنى الثاني، ويرجع سبب الحيرة والبلبلة والتراجع الحضاري للأمة لفعل الإنسان الذي لم ينضبط بدين وخلق وقيم، شرعها الإسلام الحنيف، ولا ينكر عاقل الآن مدى الحيرة والقلق الذي يعيشه المسلمون، بل الكوكب كله جراء ما صنعت يد الإنسان، أما المسلمون فلتركهم مصدر المنعة والقوة والعزة، وبقية العالم لخروجه عن الفطرة السليمة التي فطره الله الناس عليها.

الخروج من الفتنة التي بمعنى الحيرة فيما آلت إليه أمور المسلمين يقتضي الحوار والتفاهم حول أسباب الوقوع في هذه الحيرة والقلق والاضطراب، ثم بيان كيفية الخروج من هذه الفتنة التي عمت وطغت، ومادة الحوار أراها تبدأ بالآتي:

أولاً: بيان الحكم الشرعي المنضبط في أنظمة الحكم التي تتحاكم إلى غير شريعة الله سبحانه، وتجمع مع ذلك موالاة الكفار، والتماهي بل تنفيذ مخططاتهم، وعلى رأسها:

١. الصد عن سبيل الله بكل قوة وعنف.
٢. قلب الحقائق، وتدليس المفاهيم، وإلباس الباطل ثوب الحق.
٣. إغراق العالم في الملذات والشهوات، حتى لا يفيق من سكر المادة والمتعة.

اختلف العلماء في هذا الأمر اختلافاً كبيرًا، طرفاه يبدأ بالتكفير، والآخر بالتعايش والمسالمة الكاملة كأنه يعيش في دولة الخلافة الأموية أو العباسية، الناس في حيرة من هذين الطرفين، ولكل وجهة وشبهة دليل، ومن هنا تأتي الفتنة والحيرة والبلبلة والاضطراب في التصور، ويتبعه بالضرورة فساد المعالجة، هذه القضية أصبح الفصل فيها بنظر أهل العلم الثقات يخرج من الفتنة، وتأتي أهمية النظر في هذه النازلة ما صاحبها من انقلاب عسكري بغيض، دمر الأخضر واليابس من البشر وكل مفردات الحياة الحيوية، السكوت عن البيان والمدارسة والحوار حول هذه المسألة والانشغال بغيرها بالفعل يوقع في الحيرة والفتنة التي حذرنا منها القرآن الكريم بقوله: "حتى لا تكون فتنة".

ثانياً: الحوار حول قضية العقيدة، ببيان المطلوب من المسلم العادي والمتوسط والعالم في الإيمان بالله تعالى، والإيمان برسله وكتبه وملائكته والقدر واليوم الآخر، فقد انشغل فريق من المسلمين بكثير من قضايا الإيمان بالله سبحانه وتعالى فأحدث الفتنة والقلق والاضطراب بين الناس، وعلى رأسها قضية الولاء والبراء، وصفات الله سبحانه وتعالى، تعصبوا لطريقة معينة، فشغلوا الناس عن صلب وحقيقة الإيمان بالله ومدى تحقق ثماره إذا أثمر وأينع في قلب المؤمن، هذه القضية تحتاج إلى نظر أهل العلم، الذين يميزون بين الأصل والفرع، وما يقبل الخلاف وما لا يقبل، وترك ذلك لأهواء بعض المنتسبين إلى العلم يوقع العوام في الفتنة والحيرة والقلق.

ثالثًا: الحوار حول الدولة في الإسلام من حيث الأسس والمفاهيم والشكل والآليات، هذا الموضوع ما زال الكلام فيه غير مشبع، والتصورات فيه رؤى فردية، وهو أحد مطاعن الجهلاء وكثير من العوام والأعداء، فوضع النقط على الحروف في شكل دستور أو مواد قانونية واضحة الفلسفة، بينة الحكمة، جلية المقصد، أصبح من الضروري الذي يبعد الفتنة عن كثير من المسلمين، ويكون حجة أمام الجهلاء والطاعنين، قراءة هذا الملف قراءة علمية في إطار ضوابط القرآن والسنة والواقع الذي نعيشه من أكبر الأسباب التي ترفع الفتنة وتحجمها إن لم تقض عليها.

رابعاً: حوار قوي وجاد حول أهمية تشكيل وبناء محور إسلامي وعربي كبير بين أبناء الدول الإسلامية والعربية، الأمة الآن تحت خط نار الصهاينة ومن لف لفهم ودار في فلكهم، وهذه من أكبر أسباب الفتنة التي توقع الناس في

الحيرة والقلق والاضطراب، الناس يتساءلون لماذا تقدم أهل الكفر والفسوق على أهل الإيمان والإسلام، الناس في حيرة من جعل الكفار سبيلاً على أهل الإيمان والإسلام، سبيلاً في البر والبحر والجو، الخروج من هذه الفتنة بدايته ببيان الحكم الشرعي المنضبط في أهمية وضرورة تشكيل محور إسلامي كبير يكون عنواناً للقيم الحضارية التي دعا إليها الإسلام، ورباطاً وثيقاً بين أهل الإيمان والإسلام.

محور يدافع عن المظلوم أينما وجد، وينشد العدالة لكل البشر، ما زال الكلام في هذه القضية لم يأخذ حظه من أهل النظر والفكر، والخروج بتوصيات أو قرارات أو غير ذلك، تكون نبراساً وهدىً لتكوين هذا المحور من الناحية الشرعية والواقعية.

خامساً: حوار حول بناء الإنسان بناء يليق بتكريم الله له، وتسخير الكون تحت خدمته، الإنسان المسلم خصوصاً يعيش حالة من القلق والتوتر والخوف جراء بنيته المعرفية الضحلة، والثقافية المحدودة، والصحية والنفسية المريضة، بعض أبناء العالم العربي والإسلامي يعيش في محنة الغباء العقلي، والتردي النفسي والصحي من منظومة العفن العلمي والتعليمي والخدمي الذي يقدم له، خارت عزيمة كثير من المسلمين بسبب الضعف العلمي والمعرفي الإسلامي والإنساني، أدى ذلك إلى الحيرة والقلق والاضطراب، ومن هنا تأتي أهمية الحوار حول قضايا التعليم والصحة والبنية المتكاملة لإنسان نظيف العقل والقلب والجوارح.

سادساً: الحوار حول قضية المال والثروة، حيث قوام الحياة، أشكال التعامل مع المال في العصر الحديث تنوعت، بعضها واضح المعالم، وكثير منها خفي المنبع والأصل، لا تعرف له أصلاً من فصل، فتنة أوقعت الكثير في الحيرة والقلق والاضطراب، حيث المال إما أن يأتي من حل أو غير ذلك، وهو موطن السؤال يوم القيامة، فيم اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ ومن هنا تأتي أهمية الحوار الجاد حول قضاياه الملحة، والتي يترتب عليها بنيان لأمة أو هدمها فوق رؤوس أبنائها، الحل عند أهل العلم والنظر والذكر، بوضع ضوابط لتداوله، وحرية اكتسابه، وطريقة التصرف فيه، ما زال هذا الجانب

يحتاج إلى كثير بحث ونظر، صحيح فيه دراسات وأبحاث كثيرة، لكنها تحتاج إلى بلورة في صورة مشروع حضاري صالح ومصلح لعصرنا الحالي.



لاشك هناك قضايا أخرى قد تكون في أهمية ما سبق طرحه من قضايا، أو تزيد، لكن تعالوا نتحاور فيما سبق، نضع الأساس والإطار والتأصيل، ونصوغ مشروعاً حضارياً يليق بأمة أنزل لها القرآن، وأكرمها الله سبحانه وتعالى بسيد الرسل والأنبياء، ولها تاريخ مجيد، أمة فيها من الخير والبركة في كل سبيل وطريق، لكنها تحتاج إلى مشروع تأصيلي تفصيلي لكل جوانب الحياة، لا نبتعد فيه عن الماضي التليد، ولا نتحجر تحته، نحن أحوج إلى فقه جديد لمرحلة جديدة من عمر هذه الأمة المجيدة، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.



آثار الاستبداد

شيخ الأزهر الأسبق

محمد الخضر حسين*

إذا أنشبت الدولة برعاياها مخالب الاستبداد نزلت عن شامخ عزها لا محالة، وأشرفت على حضيض التلاشي والفناء؛ إذ لا غنى للحكومة عن رجال تستضيء بآرائهم في مشكلاتها وآخرين تثق بكفاءتهم وعدالتهم إذا فوضت إلى عهدهم بعض مهماتها.

والأرض التي اندرست فيها أطلال الحرية إنما تأوي الضعفاء والسفلة ولا تنبت العظاء من الرجال إلا في القليل.. قال صاحب لامية العرب:

ولكن نفساً حرة لا تقيم بي *** على الضيم إلا ريثما أتحول

---

* كتاب: الحرية في الإسلام، لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين، ص١٧-٣٧.

فلا جرم أن تتألف أعضاء الحكومة وأعوانها من أناس يخادعونها، ولا يبذلون لها النصيحة في أعمالهم، و آخرين مقرنين في أصفاد الجهالة يدبرون أمورها على حد ما تدركه أبصارهم، وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الأمة؛ فلا تلبث أن تلتهمها دولة أخرى وتجعلها في قبضة قهرها وذلك جزاء الظالمين.

ثم إن الاستبداد مما يطبع نفوس الرعية على الرهبة والجبن، ويميت ما في قوتها من البأس والبسالة:

فمن في كفه منهم قناة *** كمن في كفه منهم خضاب

فإذا اتخذت الدولة منهم حامية أو ألفت منهم كتيبة عجزوا عن سد ثغورها وشلت أيديهم من قبل أن يشدوا بعضدها.



وإن أردت مثلاً يثبت فؤادك ويؤيد شهادة العيان فاعتبر بما قصه الله تعالى عن قوم موسى عليه السلام، لما أمرهم بالدخول للأرض المقدسة وملكها، كيف قعد بهم الخوف عن الطاعة والامتثال وقالوا: (إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا)

فمتى جئت تسأل عن الأمر الذي طبع في قلوبهم الجبن وتطوح بهم في العصيان والمنازعة إلى قولهم: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة:٢٤).. وجدته خُلق الانقياد المتمكن في نفوسهم من يوم كانت الأقباط ماسكة بنواصيهم وتذيقهم من سوء الاستعباد عذاباً أليماً.

والأمة مفتقرة إلى الكاتب والشاعر والخطيب، والاستبداد يعقد ألسنتهم على ما في طيها من الفصاحة وينفث فيها لكنةً وعـيًّـا، فتلتحق لغتهم بأصوات الحيوانات ولا يكادون يفقهون قولاً.



وإذا أضاءت على الأمة شموس الحرية وضربت بأشعتها في كل واد، اتسعت آمالهم وكبرت هممهم وتربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة، ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم، فتتفتق القرائح فهماً وترتوي العقول علماً، وتأخذ الأنظار فسحة ترمي فيها إلى غايات بعيدة؛ فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية، ولا ينحرفون عن طريق سياستها العادلة.

والحرية تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة، فإذا نظمت الحكومة منهم جنداً استماتوا تحت رايتها مدافعة ولا يرون القتل سبة إذا ما رآه الناكسو رؤوسهم تحت راية الاستبداد.

ثم إن الحرية تعلم اللسان بياناً وتمد اليراعة بالبراعة، فتزدحم الناس على طريق الأدب الرفيع وتتنور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة.. هذا خطيب يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية في نصرة الحقيقة ويحرك العواطف ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة، وآخر كاتب، وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة.

ولم تكن ينابيع الشعر في عهد الخلفاء الراشدين فاغرة أفواهها بفن المديح والإطراء، وإنما ترشح به رشحاً وتمسح به مسحاً، لا يضطهد من فضيلة الحرية فتيلاً، وما انفلت وكاؤها وتدفقت بالمدائح المتغالية إلا في الأعصر العريقة في الاستبداد.

ولما وقر في صدر عمر بن عبد العزيز من تنظيم أمر الخلافة على هيئته الأولى لم يواجه الشعراء بحفاوة وترحاب، وقال: ما لي وللشعراء. وقال مرة: إني عن الشعر في شغل. انتجعه جرير بأبيات فأذن له بإنشادها وقال له: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً. وعندما استوفاها واصله بشيء من حر ماله فخرج جرير وهو يقول: خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراضٍ، ثم أنشد يقول:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه *** وقد كان شيطاني من الجن راقياً



ومن مآثر الاستعباد ما تتجشأ به اللها، وتسيل به الأقلام من صديد الكلمات التي يفتضح لك من طلاوتها أنها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلة، وتدثر صغاراً، نحو (مقبل أعتابكم) (المتشرف بخدمتكم) (عبد نعمتكم). ولا أخال أحداً يصغى إلى قول أحد كبراء الشعراء:

وما أنا إلا عبد نعمتك التي *** نسبت إليها دون أهلي ومعشري

إلا ويمثل في مرآة فكره شخصاً ضئيلاً يحمل في صدره قلباً يوشك أن ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة.

ومن سوء عاقبة الخضوع في المقال أن يوسم الرجل بلقب وضيع ينحته له الناس من بعض أقوال له، أفرغ فيها كثبة من التذلل وبذل الهمة؛ كما سموا رجلاً باسم: "عائد الكلب"؛ لقوله:

إني مرضت فلم يعدني واحد ** منكم ويمـرض كلبكم فأعـود



ولا نجهل أن بعض من سلك هذا المسلك من التملق والمديح اتخذه سلّماً؛ ليظفر بحق ثابت، ولكنه لا ينافي الغرض الذي نرمي إليه من أن الحقوق في دولة الحرية تؤخذ بصفة الاستحقاق، وفي دولة الاستبداد لا تطالب إلا بصفة الاستعطاف، ذلك الوزر الذي يُحبط بفضل العزة التي نبهنا الله عليها، وأرشد مَن يريدها إلى أنها تطلب بالطاعة من الكَلِم الطيب، والعمل الصالح، فقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

د. عبد العزيز الطريفي*

فك الله أسره

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) سورة النساء

---

* عبد العزيز الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن، سورة النساء، آية ٧٥ .

في هذه الآية أمر الله بالقتال لأجل المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والولدان ، الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وعجزوا عن الهجرة، وحبسوا عنها، فبقاؤهم بمكة اضطرار لا اختيار، ولذا سماهم الله المستضعفين؛ أي: المغلوب على قوته وحريته واختياره، ثم قال في وصفهم وبيان قهرهم وغلبتهم: {الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها} فهم يتربصون الهجرة وحبسوا عنها، فنصرة المستضعفين واجبة، وهي من القتال في سبيل الله كما سماها الله، والجهاد تتعدد أسبابه وتتنوع.

وكل قتال كان في إحقاق الحق، ودفع الظلم، وإقامة العدل الذي أمر الله به، فهو جهاد في سبيل الله، وكل مجاهد على نيته وقصده؛ فإن الله سمى الدفع عن الأرض والأهل والذرية قتالاً في سبيله؛ فقال: {وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا...} [البقرة : ٢٤٦].

وسمى الله الدفع بأنواعه بالقتال في سبيله: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} (البقرة : **١٩٠**] ، وسمى القتال لإعلاء كلمة الله على الكافرين قتالاً في سبيل الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: **٣٩**].

وفي آية الباب قال مجاهد: «أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة».

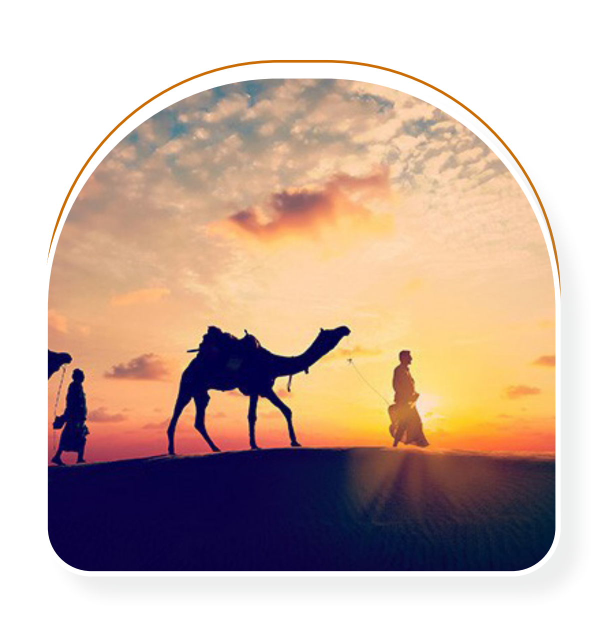
قال ابن عباس: «أنا وأمي من المستضعفين؛ أنا من الولدان، وأمي من النساء». رواه البخاري.

ثم نسب الله الظلم لأهل مكة لا لمكة، وكنى عنها بالقرية تعظيماً لها، وقد سماها في مواضع بالبلد الأمين، والحرم، وبكة، وأم القرى.

والبلدان مهما عظم تشريفاً لا تمنع أصحابها من الظلم فيها، والتعظيم للبلد يكون إما لذاتها، وإما لأهلها، وتعظيم البلدان لأجل فضل أهلها وعملهم أعظم

من فضل البلدان ذاتها؛ فمكة أفضل من المدينة في قول جمهور العلماء، ومع ذلك أمر الله بالهجرة من مكة مع فضلها؛ بسبب ظلم أهلها، إلى المدينة وهي مفضولة؛ بسبب فضل أهلها وعملهم.

الهجرة وحكمها



وفي قوله: {أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا} وجوب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وعدم جواز الإقامة في بلد الكفر إلا للطريد الفار بدينه من مثلها، كما هاجر أهل مكة إلى الحبشة بدينهم وأنفسهم؛ فيجوز للمسلم أن يفر بدينه ولو إلى بلد كفر.

لكن لا يجوز لمسلم أن ينوي الإقامة فيه بلا تربص بالرجعة عند وجود مكان آمن يقيم دينه في بلد مسلم؛ فإن الخلطة بأهل البلدان تؤثر في الفطر، وتنقل الطبائع، وتجعل النفوس تقرن بين ما لا يقرن من الطبائع والأخلاق وبين الدين؛ فإن استحسنوا الطبائع والعيش، استحوا الدين ، فإن لم يتأثر الرجل بنفسه، تأثرت ذريته، فإن سلم الآباء، لم يسلم الأولاد، وإن سلم الأولاد، لم يسلم الأحفاد، وكثير في بلدان الغرب اليوم في أوروبا وأمريكا ما يوجد نصارى من آباء أو أجداد مسلمين، رأوا أنهم يحفظون دينهم، وغاب عنهم ضياع دين أولادهم وأحفادهم.

الهجرة إلى بلد الكفر وحدوده: والمراد بالظلم في الآية: الكفر والشرك، وإذا أطلق الظلم في القرآن، فيراد به الكفر، ومن قهر في نفسه وماله في بلد مسلم لا يجوز له الخروج إلى بلد الشرك والإقامة فيه إلا عابراً متربصاً ينتظر الفرج ورفع الظلم عنه ليعود، لا كمن يقيم ويتزوج ويستكثر من الذرية، فلا يجوز دفع ظلم الدنيا بإيقاع ظلم الدين، وهو الكفر.

وكثير من بلدان الإسلام اليوم تسلط عليه حكام أظهروا الكفر، وقهروا الناس عليه، فكانت إقامة المصلحين فيها كإقامتهم في بلدان الكفر أو أشد، فإن عجزوا عن الصبر، فلهم أن يتحولوا عن بلدهم إلى بلدان المسلمين الأخرى، فإن عجزوا، جاز لهم الخروج إلى بلدان الكفر التي يظهر فيها العدل لهم، متربصين بلداً مسلماً يظهرون فيه دينهم؛ كما خرج الصحابة إلى الحبشة وهو بلد كفر، فلما مكن الله لنبيه بالمدينة، خرجوا إليها، وقد كان الزهري عازماً على أنه إن مات هشام بن عبد الملك، لحق بأرض الروم؛ لأن الوليد بن يزيد كان قد نذر دمه إن قدر عليه.



بلد الإسلام وبلد الكفر

وبلد الإسلام هو الذي يسكنه المسلمون ويظهرون شعائر دينهم: أصولها وفروعها، وأعلامها ومشهورها؛ كالتوحيد والصلاة والزكاة والصيام، والحجاب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأذان وبناء المساجد، ولو كان الحاكم كافراً في نفسه، فالبلد يبقى مسلماً بأهله وشعائره، يهاجر إليه ولا يهاجر منه، فلا أثر لكفر الحاكم بعينه؛ فقد يكون الحاكم مسلماً والمحكومون كفاراً، فبلدهم بلد كفر كالحبشة بعد إسلام النجاشي؛ هو حاكم مسلم ورعيته نصار ، وبلده بلد كفر وإن آووا وعدلوا في حقوق الناس ولم يظلموهم.

وقد يكون العكس؛ فيكون الحاكم كافراً، ورعيته مسلمة يظهرون الدين وشعائره؛ فالحكم لهم لا لحاكمهم على الصحيح، ولا تخلو قرون وأقاليمه من ارتكاب بعض الحكام لمكفر، ومن العلماء من ينص على تكفير حاكم بعينه، فلم يأمروا المحكومين بالهجرة من بلدانهم، وإنما ينظر في عزله وقدرتهم عليه، وقد حكم العبيديون مصر والقيروان وغيرها من المغرب ولم يأمر العلماء أهلها بالهجرة منها، ولم يسمها أحمد منهم بلد كفر؛ لأن أهلها مسلمون يظهرون شعائر الدين.



ومثل ذلك في ولاية البويهيين للعراق، وكان فيها علماء وأجروا حكم بلدهم بحكم أهلها وما يظهر من شعائر دينهم، وكان علماء المغرب في القيروان ينكرون على أبي جعفر الداوودي لما أنكر عليهم سكناهم تحت مملكة بني عبيد، فقالوا له: "اسكت لا شيخ لك". لأنه لم يتفقه في غالب أمره على شيخ فإنهم رأوا أن بقاءهم تثبيت لأهلها على الإسلام والسنة، ولو خرجوا منها لزاغ الناس؛ فثبات العالم ثبات للعامة.

وفي الآية: تنبيه على توكل الضعيف على الله وطلب المدد والعون منه؛ وذلك في قول المستضعفين: {وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًاً}؛ فهم سألوا المعين والنصير من الله لا من غيره، وإذا اجتمع تمام الضعف مع تمام التوكل، جاء النصر وتحققتِ الإجابة.

يعتذر مدير التحرير
حامد عبد العظيم
عن مقاله هذا الشهر

"ترحب مجلة كلمة حق باستقبال مقالات القراء ، إذ تعمل هيئة التحرير على فرزها ونشر المتميز منها في كـل عدد جديد ، يُرجى إرسال المقالات على البريد التالـي Klmtuhaq@gmail.com"

شروط المقال

(١) ألا يكون عاطفيا يخاطب الشعور بل عقلانيا وما أجمل لو يكون خلاصة عملية.

(٢) أن يكون في باب الثورة والمقاومة والكفاح، فذلك واجب الوقت.

(٣) أن يكون عمليًا مفيدا وأحسن ما يكون لو قدم إجابة على سؤال كيف نفعل كذا، أو في الموقف الفلاني ماذا ينبغي أن نفعل، وهو مجال واسع، يكتب فيه السياسي والاقتصادي والقانوني والإعلامي والشرعي الثورات الأمة بحاجة لخبرات في كل هذه المجالات

(٤) أن يكون مكتوبًا باسم صاحبه، لا باسم مجهول ولا بكنية، فلئن كان ثمة ما قد يعرقل نشر الاسم الظروف خاصة ، فيمكن للمجلة أن تحتفظ بالاسم دون نشره لرغبة صاحبه.



klmtuhaq



السنة الثالثة   العدد ٣٥   يونيو ٢٠٢٠

المشرف العام
محمد إلهامي

مديـــر التحـــرير
حامد عبدالعظيم